قسم العقيدة والفلسفة

فلسفة القوة عند نيتشه وأثرها على المجتمع العالمي

دكتور/ جميل إبراهيم السيد إبراهيم تعيلب

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين. وأشـــهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت ، بيده الخير، وهو على كـــل شـــيء قدير.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمـــداً عبده ورسوله .. **وبعـــد:**

ففي تاريخ الإنسانية شخـــصيات يدور حولها جدال كبير، وأخذ ورد. وفي تاريخ الفكر يوجد أفكار تقلـــب موازين البشرية.

ولعل من الشخصيات الهامة التي دار حولها جدال كبير، والفكر الذي تبناه صاحبه، فقلب موازين البشرية الفيلسوف الألماني"نيتـــشه" وآراؤه الفلسفية.

فهنـــاك خـــلاف حـــول هـــذه الشخصية. هل هو فيلسوف، صاحب أفكار متميزة جديدة أم لا؟ وهل الفكر الذي نادى به جدير بالاعتبار أم لا؟

وهذا البحث يتحدث عن هـــذه الشخصية، وعن بعـــض النظريـــات التي نادى بها كنظرية القـــوة ، وأن منطق القوة هـــو الـــذي يجـــب أن يسود،وأن الفرد القوي هـــو الـــذي يجب أن يسيطر على العالم، ويحـــل محل الإله.

وإن كنت قد وفقت فللـــه وحـــده الفضل والمنة، وإن كانت الأخـــرى فمن نفسي، وأستغفر الله وإني أرجو من أساتذتي وزملائي التقويم.

وفي النهاية: أتقدم بخالص الشكر لأستاذي الدكتور على معبد فرغلي، الذي أشار على بالبحث فـــي هـــذا الموضوع.

والله تعالى أسأل أن يوفقنا لمـــا يحبه ويرضاه، إنه سميع قريب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دكتور : جميل إبراهيم السيد

تعيلب

* * *

مدخل : مصطلحات الموضوع

معني فلسفة:

من المصطلحات والمفاهيم، التي يصعب وضع تعريف محدد له؛ وذلك لاختلاف وجهات النظر والرؤى من زوايا مختلفة الفلسفة

والتعريف اللغوي أو الاشتقاقي لهذه الكلمة "محبة الحكمة".

والتعريف الذي يتضمن عمل الفليسوف وغايته:

١- تمام الفضيلة بالتشبه بالله بقدر الطاقة الإنسانية .

٢- العناية بالموت؛ بمعني إماتة الشهوات كطريق إلي الفضيلة العلمية والخلقية .

التعريف الذي يبين حقيقة الفلسفة أو شمولها أو علاقتها بالعلوم والفنون ومرتبتها بالنسبة لها، هو أن الفلسفة صناعة الصناعات، وحكمة الحكم.

التعريف الذي يبرز العنصر الإنساني في الفلسفة هو: أنها معرفة الإنسان نفسه.

التعريف الذي يدل على الموضوع الحقيقي للفلسفة وهو : علم الأشياء الأبدية الكلية إنياتها ـ الوجود غير الماهية ـ ومائيتها ـ الماهية بمعني ما هو. والمراد بها الحقيقة والذات ـ وعللها بقدر طاقة الإنسان "[١]. ومفهوم الفلسفة في الإستعمال العام اليوم هو: التناول العلمي للمسائل العامة المتعلقة بمعرفة العالم والنظرة إلي الحياة[٢].

معني القوة: في اللغة: القوة نقيض الضعف. والجمع : قُوًي وقوِيّ. وقوله عز وجل: يا يحيي خذ الكتاب بقوة) [٣]أي: بجد وعون من الله تعالي، وهي القواية نادر، إنما حكمه القداوة أو القداءة يكون ذلك في البدن والعقل، وقد قوي فهو قوي وتقوي واقتوي كذلك وقويته أنا تقوية،وقاويته فقويته: أي غلبته.

---

١ - تمهيد للفلسفة. د. محمود حمدي زقزوق. ص٤٠ . ط دار المعارف . الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٤م.

٢ - السابق ص ٣٥.

٣ - سورة مريم من الآية ١٢.

ابن سيده: قوي الله ضعفك: أي أبدلك مكان الضعف قوة . وفرس مقو: قوي . ورجل مقو: ذو دابة قوية. فالقوي في نفسه، والمقوي في دابته.

والقوة : الخصلة الواحدة من قوي الحبل ، وقيل : القوة والطاقة الواحدة من طاقات الحبل أو الوتر[١].

معنى القوة في الاصطلاح الفلسفي: القوة : القدرة، والشدة، والطاقة، وضدها الضعف. تقول: قوة الجسم، وقوة الفكر، وقوة الغريزة.

والقوة : هي القهر المادي والخارجي. أو الضرورة التي لا تستطيع الإرادة مقاومتها ـ ومنه قولهم: استولى على الشئ بالقوة، وخضع للقوة. والقوة بهذا المعنى مقابلة للحق؛ لأنها ليست حقا، وإنما هي وسيلة للدفاع عن الحق، أو لمنع صاحب الحق من التمتع بحقه[٢].

نيتشة: مولده ، وحياته .

ولد فريدريش نيتشه في بلدة "روكن" ، وهي مقاطعة بروسية بألمانيا في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٨٤٤م. وإن كان هو يعتبر نفسه بولونيا ـ شمال إيطاليا الوسطى، وأسرة نيتسكي التي يدعى انتسابه إليها قوم من المحاربين والسادة، كانوا يعتبرون أنفسهم من أنصاف آلهة الأولمب[٣]. ولعل هذا من الأسباب التي جعلته يقول بالقوة بعد ذلك.

وافق يوم مولده مولد أميرا من الأسرة الحاكمة، فتيمن أبوه به،

---

١ - لسان العرب . جمال الدين ابن منظور ج٥ ص ٣٧٨٧، ٣٧٨٨. ط دار المعارف بدون

٢ - المعجم الفلسفي. د. جميل صليبا. جـ٢. صـ٢٠١،٢٠٢. ط دار الكتاب اللبناني بيروت. الطبعة الأولى . سنة ١٩٧٣م .

٣ - راجع المفكرون من سقراط إلى سارتر . هنري توماس، وداتالي توماس. ترجمة عثمان نويه.ص ٣٩٧. ط مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧٠م.

وسماه على اسمه، وهو فرد يش وليام الرابع، وهذا اليوم كان مصدر سعادة له في صغره" وإن في اختيار هذا اليوم لميلادي لفضلاً واحداً، وهو أن مظاهر الفرح كانت تسري بين الناس أجمعين يوم عيد ميلادي طوال عهد طفولتي "[1].

كان أبوه مربياً لكثير من أفراد الأسرة المالكة.

وكان فريدريش نيتشه من أسرة خالصة في التدين؛ حيث كان أبوه " لوفييج نيتشه" قساً بروتستانتينياً، وكان جده كذلك، وجده لأمه أيضا قساً بروتستانتينياً. وكان جده لأبيه له عدة كتب دينية منها. "البقاء الأبدي للمسيحية "تشر عام ١٧٩٦م.

في سبتمبر عام ١٨٤٨م أصيب والده بمرض عقلي لازمه حتى وفاته عام ١٨٤٩م، وفي عام ١٨٥٠م فُقد أخوه الأصغر الذي ولد عام ١٨٤٨م ، فانتقلت أمه بأسرتها إلى "تاومبورج" حيث عاش هناك باقي طفولته مع أمه وأخته وجدته لأبيه وعمتين.

نشأ نيتشه نشأة دينية، وعرف في أسرته والمحيطين به منذ الصغر بالتدين والتقوى، وكان أصحابه يلقبونه " بالقس الصغير"، و "المسيح في المعبد" وكان عنده قدرة منذ صغره على إنشاد مقاطع من الإنجيل، وتراتيل ترقق القلوب، وتدمع العيون. وكان كثيراً ما يعتزل الناس ليقرأ الإنجيل لنفسه، أو يتلوه على بعض المستمعين في حماسة شديدة.

التحق نيتشه عام ١٨٥٨م بمدرسة "بفورتا" مدة ستة أعوام ، خضع خلالها لنظامها وتقاليدها الصارمة.

في هذه الأثناء وعمره ثمانية عشر عاما انقلب من حياة التدين، إلى إنسان آخر، فقد فقد الإيمان بإلهه وإله آبائه، فلا توجد قوة

---

١ - قصة الفلسفة الحديثة . أحمد أمين وزكي نجيب محمود ج٢ ص٥١١. ط لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٩م.

عليا، أو إله يلجأ إليه، وبعد تعب قال بأنه وجد إلهه فيما يعرف بالإنسان الأعلى أو السوبر مان، وقال عن هذا ــ فيما بعد ــ " إنه لم يلق عناء في أن يتخذ لنفسه ذاك الإله الجديد"[1].

بدأ الكتابة الأدبية مبكرا، وكان ممن تأثر به الشاعر الألماني " فريدريش هيلدرين" ــ الذي كتب مسرحية سماها " أمبادوقليس" ــ حيث كتب مقالاً حماسياً عنه ــ على الرغم من عدم معرفة الكثير من الألمان عن هذا الشاعر- واشتهر هذا الشاعر بعد ذلك، واعتبر أنه شاعر ألمانيا العظيم بعد جوته.

ولعل من أوجه تأثر نيتشه بهذا الشاعر، طريقة موت هذا الشاعر، فيقال: إنه ألقى بنفسه في فوهة بركان "أتنا" ، وترك نعله خارج البركان ليدل على فعله، حتى يرجع إلى الطبيعة، إلى أمه الأولى، الذي ابتعد وفصل عنها قسرا رغما عنه، برغم كراهيته لذلك، فهو يقبل على الموت طواعية واختيارا، كي يحقق الإتحاد مع الطبيعة؛ لأن أسمى غاية للإنسان هي الاتحاد مع الطبيعة[2]. وهذا الفعل في نظر نيتشه يدل على القوة والشجاعة، وعدم إهابة الموت.

ويتمثل تأثره بهيلدرين وبمسرحيته "أمبادوقليس" ، أنه يمجد الإنسان، ويعتبره مقدسا ولعل هذا من أسباب قوله بالإنسان الأعلى، أو ما يعرف بـ "السوبرمان".

بعد ذلك التحق نيتشه بجامعة بون سنة ١٨٦٤م، ودرس اللاهوت، وفقه اللغة الكلاسيكي.

وفي عام ١٨٦٥م انصرف من دراسة اللاهوت، ولحق بأستاذه المفضل "ريتشل"، وكان هذا نقطة

---

١ - السابق : ص٥١٢.

٢ - نيتشه. د. عبد الرحمن بدوي صـ٩. خلاصة الفكر الأوروبي . سلسلة الفلاسفة رقم ١.ط مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثالثة . سنة ١٩٥٦م وسأشير إليه بعد ذلك ب بدوي فقط.

تحول في حياة نيتشه، إذ التقى بأستاذه "فاجنر" ــ كما سيتضح ــ.

وقبل إتمام نيتشه دراسته للحصول على الدكتوراه، عُرض عليه وظيفة أستاذ "بجامعة بازل" ، وذلك بتزكية من أستاذه "ريتشل" ، والذي قال فيها: "من بين العقول الشابة الكثيرة، التي نمت أمام عيني، خلال تسعة وثلاثين عاما، لم أعرف قط شابا مثل نيتشه، يصل إلى مرحلة النضج بسرعة كبيرة، وفي عمر مبكر، إنني أتنبأ له إذا عاش عمرا طويلا ــ وأدعو الله أن يمنحه ذلك ــ أنه سيحتل في النهاية ، المكانة الأولى بين علماء اللغة الألمان، إنه الآن في الرابعة والعشرين من عمره، وهو قوي، نشيط ، يتمتع بصحة جيدة، وشجاع في بدنه وروحه، وهو معبود عالم اللغويين الشبان هنا في "ليبتج" سوف تقولون إنك تصف معجزة من المعجزات ! أجل. إنه معجزة بالفعل، وهو في نفس الوقت، ودود، متواضع. وسوف يحقق أي شئ يهديه إليه عقله"[1].

وحتى يعين في هذه الوظيفة، اضطر للتنازل عن الجنسية الألمانية ، والتجنس بالجنسية السويسرية.

وفي هذه الأثناء، ومما أثر على صحته، أنه دخل الخدمة العسكرية، وهو في سن الثالثة والعشرين من عمره، وكان يأمل ألا يجند؛ نظرا لظروفه الصحية، وما أصيب به من ضعف في بصره. كما أنه الابن الوحيد لأمه الأرملة، ولكن محاولاته لم تفلح. وفي أثناء تجنيده، وهو يتدرب على جواد، سقط من على ظهره، فتأثر من جراء ذلك تأثرا بالغا، فسرح من الجيش، كما أنه أصيب في هذه الفترة بالدوسنتريا، والدفتريا، ولازمه آلام الصداع والقئ فترة طويلة.

---

١ – راجع فلسفة نيتشة د. يسري إبراهيم . ص١١ وما بعدها بدون. وهذا الكتاب مطبوع له تحت عنوان "نيتشة عدو المسيح". نشر دار سينا للنشر . الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠. وسأشير إلى الاسم الأول للكتاب بعد ذلك إن شاء الله .

" غادر نيتشه الجيش، وذهنه ملئ بالأوهام الخاطئة عن روعة الجندية؛ لأنه لم يمكن في خدمة الجيش مدة تكفي للحكم الصحيح. غادر الجيش وهو ما يزال مأخوذا بالحياة الأسبرطية العنيفة ، بحياة الأمر والطاعة، والصبر على العناء والنظام... لقد قدس الجندية لأن صحته حالت دون أن يحيا حياة الجنود[1]. ولعل هذا مما أثر ــ أيضا ــ في فلسفته بعد ذلك في فلسفة القوة، وفكرة الإنسان القوي المؤثر.

وفي أثناء ذلك تعلق بالموسيقى، حتى أجاد العزف على البيانو، وتوطدت العلاقة بينه وبين عبقري الموسيقى "ريتشارد فاجنر" ، وأخذ في تصنيف أول كتبه الفنية على قمة جبال الألب.

وفي عام ١٨٧٠م نشبت حرب بين ألمانيا وفرنسا، فكان الواجب عليه، أن يلبي نداء الوطنية ويترك ما أغرم به مؤقتا، ولما بلغ مدينة "فرانكفورت" لاحت في ذهنه فكرة كانت الأساس في فلسفته. يقول: " أحسست للمرة الأولى، أن أسمى وأقوى إرادة للحياة، لا تعبر عن نفسها في التنازع التعس من أجل البقاء، بل في إرادة القتال، إرادة القوة، إرادة السيطرة "[2].

لكن ضعف بنيته وبصره، حالا دون الاشتراك في ساحة القتال، فاكتفى بتمريض الجرحى، ولو أنه شاهد المعارك، وما يدور فيها لربما غير رأيه، وما قال بأن الميزان في الحكم على صلاحية الشئ وخيريته يكون بميزان القوة، وبخاصة وأن تأثره بالجرحى وبمشاهدة الدم كان كبيراً، ولا يقوى عليه، فكثيراً ما كان يمرض لذلك، مما جعلهم ينقلونه إلى بلده.

رجع نيتشه وتبوأ مركزاً علمياً مرموقاً، وظل أستاذاً لفقه اللغة في جامعة بازل من عام ١٨٦٩م حتى ١٨٧٩م ، بعدها ترك التدريس مضطرا بسبب مرضه وضعف صحته وبصره حتى إنه اضطرفي

---

١ – قصة الفلسفة الحديثة ج٢ ص٥١٣.

٢ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥١٥.

ذلك الوقت إلى من يساعده في القراءة والكتابة وكان وعمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين، .

وكان في عام ١٨٧٢م نشر نيتشه كتابه "مولد المأساة من روح الموسيقى"، وكان كتاباً فريداً في أسلوبه الشعري، أثنى عليه الكثير من علماء عصره، حتى قال له فاجنر مثنياً عليه: " لم أقرأ بعد شيئاً أجمل من كتابك"، وكتب إليه بعد ذلك يقول: " لقد قرأت في كتابك مرة أخرى، وأقسم لك بالله أنني أعتبرك الشخص الوحيد الذي يعرف ما أحاول أن أفعله "[١]. ولكن هذا الكتاب لم يلفت أنظار الباحثين خارج دائرة الموسيقى، " إذ تجاهله النقاد تجاهلاً تاماً، ووصفه القليلون الذين انتبهوا إليه بأنه مشوه، لا وحدة فيه ولا ارتباط "[٢].

وكان ممن تأثر بهم نيتشه كثيرا في هذه المرحلة "شوبنهور" و"فاجنر" وسنتحدث عنهما إن شاء الله بعد ذلك.

ويبدو أن الصداقة في حياة نيتشة لم تأخذ حظها الكامل، ولم يعرف معنى الصداقة الحقيقية، التي يكون الصديق فيها صادق مع صديقه، فقد كانت مؤلفات نيتشه سببا في افتراقه عن أصدقائه، أو افتراقهم عنه ، فإذا صنف كتابا وعرضه على أحد أصدقائه، فأبدى فيه رأيا بنقد أو نحوه، هجر هذا الصديق، وجعله عدوا له،وعدم استمرار نيتشه في صداقته لأحد، يبدو أن هذا كان أمرا مركبا في شخصيته، وكما يقول د. بدوي" لا يستطيع أن يرتبط باستمرار بأية رابطة من الروابط"[٣].

ويصور نيتشه إحساسه بالوحدة بقوله: " آه لو كان في استطاعتي إعطاؤك فكرة عن إحساسي بالوحدة، فلست أجد من بين الأحياء

---

١ - فلسفة نيتشه ص ١٨.

٢ - نيتشه د. فؤاد زكريا ص٢٧. ط دار المعارف . الطبعة الثانية . بدون. وسأشير إليه بعد ذلك بزكريا .

٣ - بدوي ص٧.

ولا الأموات من أحس بأن بيني وبينه شبها وقرابة، وهذا مخيف مخيف جدا"[١]. وبين أنه لم يجد من يؤنسه في وحدته إلا فكر كتاب زرادشت: " أن لا أسمع بعد دعوة صادرة من أعماق نفسي مثل كتاب زرادشت، أية إجابة أو كلمة رد أو صدى لا شئ، لا شئ مطلقا، وأن لا أجد مطلقا، وأن لا أجد دائما غير وحدة صامتة، يتضاعف ألمها آلاف المرات، في هذا كله ما يفوق كل ما يستطيع المرء تصوره من فزع وهلع، وإن أعظم الناس قوة وأشدهم جلدا وصبرا، ليمكن أن يقضي عليه منه"[٢] وكثيرا ما كان يخاطب نفسه قائلا : "أيتها الوحدة، أيتها الوحدة، أنت وطني"[٣].

وفي خطاب لصديقة له تسمي ملفيدا أرسله سنة ١٨٨٧م يقول: " أشعر بأني قد قضى على بالوحدة، حتى أصبحت حصني الحصين، وليس لي في هذا الآن أي اختيار. وإن ما يدعوني إلى الاستمرار في الحياة من واجب ضخم سام لا مثيل له، يدعوني أيضا لتجنب الناس، وعدم التعلق بشخص ما من الأشخاص. ولعل الطهارة المطلقة، والسمو التام الذين دفعني هذا الواجب إليهما، هي العلة في أني لا أستطيع بعد أن أشم رائحة الناس، خصوصا الشبان الذين يتدافعون إلى أحيانا. أوه ! إنهم مزعجون ثقلاء كالكلاب الصغيرة "[٤].

وهكذا أصبح نيتشه في عزلة شبه تامة عن المحيطين به وعن العالم، حتى مرضه الذي أودى بحياته. يقول في آخر كتابه " هو ذا الرجل" : " إنني لا أعبأ بسائر علاقاتي الإنسانية، ولكني مهما كان الثمن، لا أستبعد من حياتي أيام "تريشن" ــ زوجة الموسيقى فاجنر" أيام الثقة والسرور، والأحداث الجليلة، واللحظات العميقة"[٥].

---

١ - السابق ص٧١ .

٢ - بدوي ص٧٤.

٣ - السابعة ص٣٧.

٤ - السابق ص٨٩.

٥ - فلسفة نيتشة ص١٨.

لهذه الأسباب وغيرها ـ كان نيتشه يعاني من الوحدة ـ التي فرضها على نفسه ، وفرضت عليه ـ ، ومما عمق هذا الشعور، أنه كان يحس في ذاته تميزا عن غيره، وأنه صاحب رسالة، وأنه جاء لأداء مهمة سامية مقدسة، وهي تخليص البشرية من الخرافات والأوهام التي جعلتها مضللة، ولكي تتبوأ المكانة اللائقة بها، لابد لها من أن تتبع آراءه. هذه المهمة كما يقول "ياسبرز": "هي التي جعلته يتصور نفسه، على أنه شخصية متميزة، وهي التي وجهت كل وقائع حياته، وحددت علاقاته بغيره من البشر، فقد كان يوثق علاقته بكل إنسان يرى أنه يحقق هذه المهمة، كما كان يبتعد عن كل إنسان، ويضحي بكل صديق لا يحقق هذه المهمة، وعلى هذا النحو، شهدت علاقته "بفاجنر" ميلادها ونهايتها، فعندما كان يرى أن فاجنر يحقق هذه المهمة الضرورية ، كانت علاقته به علاقة وثيقة ، فلما بدت له موسيقاه زائفة، ومناقضة لمهمته، عزف عنه، ووضع حدا لأعمق علاقة ربطت بينه وبين غيره من البشر"[1].

ومن الأسباب التي عمقت شعوره بالوحدة، زواج أخته التي كانت تتولى أموره، وهجرته مع زوجها إلى "باراجواي" . هذا الشعور كان ملازما له من صغره حتى كبره. يقول في إحدى رسائله: " حتى عندما كنت طفلا، كنت وحيدا. واليوم وأنا في الرابعة والأربعين من عمري ما زلت وحيدا " . وكان يقول: " إنني أشتاق إلى الكائنات البشرية، وأبحث عنهم، ولكنني دائما أجد نفسي فقط ، مع أنني لم أعد أشتاق إلى نفسي. لم يعد أحد يأتي إليّ، ولقد ذهبت إليهم جميعا فلم أجد أحدا". وفي رسالة أخرى يقول: " الآن لم يعد أحد يحبني، فكيف أستمر في حبي للحياة؟ " . ويقول: " حتى الضوضاء تكون عزاء بالنسبة للإنسان الوحيد". "إذا كنت قد

---

١ - السابق ص٢٢.

استطعت أن أعطيك فكرة عن شعوري بالوحدة، وأنه ليس لدى أي إنسان بين الأحياء أو الأموات، أشعر أنني أنتسب إليه،وهذا شئ مروع"[1].

وكان نيتشه يحس كأن الوحدة والوحشة هما الأصل في حياته، وكأن الوحشة هي أمه الرءوم التي يلجأ إليها فقد كان يخاطب نفسه قائلا: "أنت وطني أيتها العزلة. لقد طال اغترابي في بلاد المتوحشة، فها أنذا أعود إليك ايها الوطن، وعيناي تذرفان الدموع. ارفعي شاهدك وهدهديني أيتها العزلة تهديد الأم، وانظري إلى مبتسمه بابتسامتها"[2]

وإن كان هناك من الباحثين من يرى أن هذه الوحدة في كثير من الأحيان كان ينشدها نيتشه، فهي لم تكن مفروضة عليه دائما. فهي مطلوبة في بعض الأوقات لتتضح معالم فكره وفلسفته، وفي هذا يقول نيتشه ذاته "كل من قدر له أن يذيع شيئا جليلاً في يوم من الأيام و لابد أن يظل وقتاً طويلاً، مطوياً في داخل صمته، وكل من قدر له أن يشعل البرق يوماً ما، لابد أن يظل سحاباً مدة طويلة"[3]. فهذا هو الجانب الإيجابي في عزلة نيتشه "إن العزلة القاتلة التي عاش فيها نيتشه، قد صبغت أسلوبه بصبغة خاصة، وشعوره بالوحدة قد أضفى على كتاباته نوعا من الترفع والتعالي وغير أن هذا كله، ليس جنوناً على الإطلاق ، وما هو إلا تعبير عن النمط النفسي الخاص الذي ينتمي إليه نيتشه، وهو نمط مألوف بين العقلاء، بل بين الكثير من أعمق العقلاء تفكيرا"[4]. وإن كنت أرى أن

---

١ - السابق ص٢٦.

٢ - هكذا تكلم زرادشت . فريدرش نيتشه. ترجمة فليكس فارس ص١٥٤، ١٥٥. الإسكندرية مطبعة جريدة البصير سنة ١٩٣٨م.وسأشير إلية بعد ذلك في النص أو في الهامش ب " زار " اختصارً ا ومشيا على منهج المترجم.

٣ - بدوي ص ٨٠.

٤ - زكريا صـ٢٤.

هذا مما أدى إلى جنونه بعد ذلك، والذي لازمه حتى وفاته.

ونيتشه في كتابه "زرادشت" يتحدث كثيراً إلى الصديق، لا باعتبار أن له صديق بالفعل يناجيه، ويتحدث إليه، بل ربما حديثه لمن يقتنع بكلامه، وصولاً إلى فكرة الإنسان الأعلى. فيوصي الصديق دائماً بالابتعاد عن العامة والغوغاء، والقضاء عليهم إن أمكن؛ لأنهم مثل الحشرات، التي تمتص الدماء. يقول نيتشه: "اهرب يا صديقي إلى عزلتك، لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء، لا تقف حيث يصبك انتقامهم الدساس، وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك. لا ترفع يدك عليهم، فإن عددهم لا يحصى، وما قدر عليك أن تكون صياداً للحشرات، إنهم لصغار أدنياء، ولكنهم كثرة... لقد أرهقتك الحشرات السامة، فخدشت جلدك، وأسالت منه الدماء، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك، وهي تود لو أنها تمتص كل دمك، معتبرة أن من حقها أن تفعل؛ لأن دم الضعيف يطلب دما ليتقوى... أراك تتعالى عن أن تمد يدك لتقتل هذه الحشرات الجائعة، فحاذر أن يجول سم استبدادها في دمك... إنهم يتوسلون إليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء، وما يحتال غير الجبناء... إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة؛ لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك"[١].

وبين نيتشه في عبارات متناقضة، أن الصداقة لا تنال إلا بالعداوة، فلن تقترب من صديقك إلا إذا عاديته وهاجمته: "من يطمح إلى إكتساب الصديق، وجب عليه أن يستعد للكفاح من أجله، ولا يصلح للكفاح إلا من يمكنه أن يكون عدوا. يجب على المرء أن يحترم عداءه في صديقه؛ إذ لا يمكن لك أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته"[٢].

---

١ - زارا صـ٤٤،٤٣.

٢ - السابق ص٤٦.

وليكن عطفك على صديقك متشحا بالقسوة، وفيه شئ من الحقد، فيبدو هذا العطف مليئا بالرقة والظرف"[١] ؟؟ !! . ولا أدري كيف يتحقق هذا؟ أليس هذا تناقضاً؟.

والصداقة هذه يجب أن تكون للوصول إلى الإنسان المتفوق "عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى الإنسان المتفوق"[٢].

ويخلص نيتشه إلى أنه لا يوجد من يستحق أن يكون أهلا للصداقة بين الناس. يقول: " ولكن: ليقل لي الرجال، من هو أهل للصداقة بينهم؟. إن فقر روحكم وخساستها يستحقان اللعنة أيها الرجال؛ لأن ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني أن أبذله لأعدائي دون أن أزداد فقرا "[٣].

لذلك لم يكن نيتشه يجد ناشرا ينشر كتبه، أو من يتكلف طباعتها، فكان يقوم هو بطباعتها من نفقته الضئيلة، التي حرمته من ضروريات أخرى. ومما زاد في ألمه أنه لم يعد يجد من يقرأ كتبه، حيث قام بطبع الجزء الرابع من كتابه "زرادشت" على نفقته الخاصة القليلة، التي لم تمكنه إلا من طبع أربعين نسخة فقط، ولم يجد من المحيطين به من يهديهم الكتاب ليقرأوه إلا سبعة فقط، على الرغم مما كان في الكتاب من جمال في الأسلوب ورقي في الصياغة[٤].

وعندما أصبح نيتشه أستاذاً على المعاش بسبب مرضه أخذ في التنقل من سنة ١٨٧٩ ــ ١٨٨٩م وأصيب بالجنون في أول عام ١٨٨٩م ، وأقام في مستشفيات " بازل" و "فيينا" ، ثم انتقل إلى "تاومبرج" تمرضه أمه من عام ١٨٩٠م حتى وفاتها عام ١٨٩٧م ، وأخذت أخته بعدها في رعايته حتى وفاته.

وكان نيتشه حتى آخر حياته العاقلة، قبل أن يصاب بالجنون يرفض المسيحية، ويفضل عليها

---

١ - زارا ص٤٦.

٢ - السابق نفس الصفحة.

٣ - زارا ص٤٧.

٤ - بدوي ص٧٣،٧٢.

الوثنية، فقد كان مما أوصى به أخته عندما اشتد عليه المرض: " عديني إذا مت ألا يقف حول جدثي - هكذا في الأصل - إلا الأصدقاء ، فلا يسمح بذلك للجمهور المتطلع، ولا تدعي قسيسا أو غيره ينطق بالأباطيل بجانب قبري في وقت لا أستطيع أن أدافع عن نفسي فيه، إني أريد أن أهبط إلى قبري وثنيا شريفا"[1]. وسنتحدث إن شاء الله تعالى بشئ من التفصيل عن علاقته بالمسيحية.

مؤلفات نيتشه : تعتبر مؤلفات نيتشه انعكاسا لتطور حياته ومراحلها.

وحياة نيتشه يمكن أن تقسم إلى ثلاث مراحل رئيسة ، تمثل كل مرحلة طبيعة فكره، وتناوله للأمور، ونظرته لها، وعلى الرغم من تعدد هذه المراحل إلا أنها في الحقيقة يربط بينها رباطا متينا، وهو إيراد نفس التساؤلات والأفكار، ولكن كل مرحلة تختلف عن الأخرى في إجابتها عن هذه التساؤلات.

المرحلة الأولى: وهي المرحلة يحاول أن يفسر فيها الوجود تفسيراً ميتافيزيقيا، ويبرر هذا الوجود بأنه ظاهرة جمالية. وهذه المرحلة كتب فيها كتبا تعبر عن فكره هذا . من أهمها : ـ

ـ ميلاد التراجيديا . وقد نشره عام ١٨٧٢م.

ـ تأملات في غير أوانها.

المرحلة الثانية: ويمكن أن يطلق عليها المرحلة النقدية. وهي مرحلة خرج فيها على الميتافيزيقا، وهاجمها هجوماً عنيفاً، وارتد عنها إلى الوضعية النقدية. ومن أهم المؤلفات التي تعكس فكره في هذه المرحلة.

ـ أمور إنسانية ، إنسانية إلى أقصى حد.

ـ الفجر.

ـ العلم المرح.

المرحلة الثالثة : ويمكن أن يطلق عليها: مرحلة النضج. وفي هذه المرحلة يشن حربا شديدة على كل القيم الأخلاقية. وفيها تبدأ أفكاره

١ - قصة الفلسفة الحديثة ص٥٢١.

وأرائه تتضح، حيث يبشر فيها بالإنسان الأعلى، السوبر مان ـ ، وفكرة العود الأبدي، ويفسر كل شئ بمنطق وإرادة القوة، وأن القوة يجب أن تسود وتنتشر، ولا مجال لغيرها.

وأهم كتبه في هذه المرحلة:

ـ هكذا تكلم زرادشت. وهو أهم كتب نيتشه على الإطلاق. وهذا الكتاب في أساسه عبارة عن أربعة كتب، نشروا ما بين عام ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥م، وهذا الكتاب يعد إنجيل نيتشه وكل ما كتبه بعده يعد شروحا وتعليقات عليه[1]. وسنتناوله إن شاء الله بشئ من التفصيل بعد ذلك.

ـ بمعزل عن الخير والشر.

ـ أصل نشأة الأخلاق.

ـ قضية فاجنر.

ـ أفول الأصنام. كتبه عام ١٨٨٨م.

ـ عدو المسيح. وكتبه أيضا عام ١٨٨٨م.

ـ نيتشه ضد فاجنر. كتبه أيضا في نفس العام ١٨٨٨م.

ـ إرادة القوة. وقد استغرق تأليفه له مدة طويلة، حيث كتبه ما بين عامي ١٨٨٣م حتى ١٨٨٨م.

ـ هو ذا الرجل. وقد كتبه عام ١٨٨٨م.

ونفهم من خلال ما سبق أن أهم مؤلفاته وأكثرها، كتبها في السنوات الأخيرة من صحته العقلية قبل إصابته بالجنون. وأن الفترة من عام ١٨٨٩م وهو العام الذي أصيب فيه بهذا المرض حتى وفاته عام ١٩٠٠م كان بعيدا عن الحياة الفكرية.

وقد نشرت كتب نيتشه وترجمت إلى عدة لغات، فقد ترجم "كارفمان" كثيرا من مؤلفاته إلى الإنجليزية عام ١٩٥٤م تحت عنوان " نيتشه المتاح" .

وقد ترجمت بعض كتب نيتشه إلى العربية منها: هكذا تكلم زرادشت. ترجمه أ. فيلكس فارس، وقد طبع طبعات متعددة. ومنها

١ - راجع قصة الفلسفة الحديثة ص٥٢٨.

مختارات من ما وراء الخير والشر. وترجمه د/ محمد عضيمة.

ويذكر " د/ عبد الرحمن بدوي" في ذيل كتابه عن نيتشه قائمة بمؤلفاته وسنوات نشرها.

وآخر ما كتبه قبل جنونه كتاب " هو ذا الرجل" حيث تناول فيه نفسه وكتاباته بالتحليل " وكأنه لم يشأ أن ينتهي من التأليف دون أن يعرض على الناس رأيه في نفسه "[1].

ويبين أحد الباحثين أن نيتشه قد وصل في آخر حياته العاقلة إلى درجة لا يستطيع المضي بعدها، بل لابد بعد ذلك من الجنون " والحق أن نيتشه في نهاية فترة تفكيره الواعي، كان قد وصل في تفكيره إلى حد لا يستطيع أن يمضي بعده خطوة واحدة، فهو قد حلل نفسه وحياته تحليلا عميقا، ولخصها كلها في كتبه الأخيرة، وهو قد وصل في تفكيره إلى النقطة التي لا يكاد المرء يتصور بعدها مزيدا بالنسبة إليه، فهو يقف الآن ضد المسيح، وهو يمثل الدعوة الإيجابية إلى الحياة في مقابل الدعوة السلبية إلى التخلي عن الحياة، وحين تصل المشاكل الفكرية ــ أعني عناصر حياته ــ إلى نقطة التوتر هذه يكون الانفجار أمرا محتوما، وهكذا كان الجنون. وعلى هذا النحو يبدو الجنون نتيجة منطقية لتطور لابد منه "[2].

كتاب " هكذا تكلم زرادشت :

يعتبر كتاب هكذا تكلم زرادشت من أهم كتب نيتشه على الإطلاق، وقد اختار نيتشه الحكيم الفارس زرادشت ليقول على لسانه ما يريد أن يبوح به " وكلا من زرادشت الحقيقي والمزيف، قد هبط وهوى وهو في سن الثلاثين من ذروة جبل، كان يتخذها مقرا لاستلهام الحكمة، وأخذ يذيعها على الناس"[3] . يقول الشهرستاني: " إن

---

١ - زكريا ص٢٣. ترانيم زرادشت . ترجمة وتقديم د.فيليب عطية ص١٢. ط الهيئة المصرية للكتاب سنة١٩٩٣م سلسلة الألف كتابا لثاني.

٢ - زكريا ص٢٥ .

٣ - المجتمع المثالي ص٤١٧.

الزرادشتية يزعمون أن الله جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين، وأحف بها سبعين من الملائكة المقربين، وغرسها في جبل من جبال أزربيجان، ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة مشربه أبو زرادشت ، فصار نطفة، ثم مضغة في رحم أمه، ثم لما ولد وبلغ الثلاثين سنة بعثه الله نبيا ورسولا إلى الخلق[1].

ولعل من أسباب اختيار نيتشه لزرادشت ليستنطقه أفكاره- مع أن معنى زرادشت " اللاهوتي الأول" ــ أي الإلهي الأول أو أول من يؤمن بالإله ــ وجود بعض قواسم مشتركة بين فكر زرادشت ونيتشه. فزرادشت بعيد تماما عن "المغفرة للخاطئ، ويعظ أنه أمر هام معاملة الشرير معاملة سيئة بنفس أهمية معاملة الطيب معاملة طيبة.

إن إلهه ليس إله رحمة، بل إله عدالة "[2]. وإن كان زرادشت يعترف بإله أما نيتشه فلا يعترف بشئ.

مرض نيتشه : لقد كان المرض ملازما لنيتشه في طوال حياته، فقد كان يقول عن نفسه: " في كل أطوار حياتي كانت شدة الألم عندي هائلة لا تطاق"[3]. فقد لازمه المرض على الأقل من عام ١٨٧٣م حتى جنونه عام ١٨٨٩م والذي أودى بحياته عام ١٩٠٠م.

وكان من أهم الأمراض التي لازمته منذ صغره وورثها عن أبيه قصر النظر ــ كما سبق ــ فكان لا يقدر على البقاء في النور إلا فترة قليلة، فلا يرى نور النهار إلا ما يقرب من ساعة ونصف ساعة في اليوم. " فلا يكاد ينتهي من داء إلا ليبدأ داء جديدا، أو ليقاسي جميع الأدواء والأمراض مرة واحدة"[4].

---

١ - الملل والنحل . عبد الكريم الشهرستاني ت٥٤٨هـ . تعليق الشيخ أحمد فهمي. ط دار السرور ج١ ص٢٣٧ بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م.

٢ - ترانيم زرادشت . ترجمة وتقديم د.فيليب عطية ص١٢. ط الهيئة المصرية للكتاب سنة١٩٩٣م سلسلة الألف كتابا لثاني.

٣ - بدوي ص٩٠.

٤ - بدوي ص٩٢.

وكان نيتشه يحس بأن مرضه يقعده عن العمل، وهو لديه الكثير والكثير من الأفكار ففي عام ١٨٨٠م كتب إلى أخته يقول لها : " أعتقد أنني قد أديت مهمتي في الحياة، كما يؤديها رجل لم يمنح الفسحة الكافية من الوقت، فإنه لا يزال لدي الكثير الذي أود أن أقوله، وفي كل ساعة أخلو فيها من الألم أشعر بأني غني بالأفكار "[١].

ومع زيادة الأمراض ودوامها مع نيتشه، إلا أنه توجد فترة من حياته من سنة ١٨٨١م إلى سنة ١٨٨٤م تغلب نيتشه على آلامه ، وأنتج فيها كتبه وأعظمها. فقد كتب في هذه الفترة : الفجر. العلم المسرور. والجزئين الأول والثاني من زرادشت. وسبب هذا أنه كان يشعر في هذه الفترة بارتفاع في معنوياته ، وأن لديه أفكارا كثيرة يريد أن يخرجها إلى النور. وكان يسمي هذا إلهاماً.

وإن كان المرض كان قد أذاه كثيرا، وأقعده عن كثير من العمل، الذي كان يتمنى القيام به، إلا أن المرض أعطاه فسحة من الوقت، للتفكر والتدبر وصياغة آرائه، وكما يقول هو عن نفسه : " إن المرض هو أول شئ هداني سواء السبيل "[٢].

ولعل نيتشه من الأفراد القلائل وربما الوحيد على مر التاريخ، الذي تبنى آراء تخالف تماما بنيته وحالته الصحية.

وفاته : عرفنا أن نيتشه ظل مريضا طيلة حياته، وفقد عقله أحد عشر عاما من عام ١٨٨٩م وكان في بعض الأحيان تنتابه نوبات مفزعة تؤذي من حوله. وفي بداية مرضه العقلي انهار وسقط وهو يسير في أحد شوارع مدينة "تورينو" ثم دخل مصحة في "بازل" ثم نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية في "يينا" وخرج منها لتتولى أمه شئونه

١ - بدوي ص١٠٠.

٢ - السابق ص١٠٣.

وتمريضه، وقد عادت أخته التي هاجرت إلى "بارلجوي" بعد وفاة زوجها، وقد تولت هي شئونه بعد وفاة أمه عام ١٨٩٦م ـ كما سبق الإشارة إلى هذا ـ وظل يصارع المرض إلى أن مات في الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٠٠م ، ودفن في مقابر الكنيسة المتواضعة في "روكن" مسقط رأسه.

إعتداد نيتشه بنفسه :

كان نيتشه يعتد ويفتخر بنفسه، ويرى في نفسه تميزا أو تفوقا على غيره، وأن في اتباع آرائه وأفكاره النجاة، وفي البعد عنها الهلاك والردى. يقول في هذا: " ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل، ومن لا طاقة له على ذلك، فلا يظن أني سأكون طوع يده، يقبض عليّ كما يقبض الكسيح على عصاه "[١]. ويقول: " أجل! إني لأعلم من أنا، ومن أين نشأت. أنا كاللهيب الذي أحترق وآكل نفسي. نور كل ما أمسكه. ورماد كل ما أتركه. أجل! إني لهيب حقا "[٢].

وأنه لا يجد أحدا يتفوق عليه أو حتى يماثله : " ما بالي لا أجد بين الأحياء أناسا ترتفع بصائرهم إلى أعلى عما ترتفع إليه بصيرتي، وتكون مرتبتي أقل من مرتبتهم؟ ومع هذا: فإني لا أصبو لغير هؤلاء "[٣].

بل إن نيتشه يقول في فخر وزهو وكبر أنه لا يصاحب أحداً، لأنه لا يوجد أحد يستحق مصاحبته " أنا فخور بنفسي فخراً يحملني على الاعتقاد بأنه لا يوجد من يقدر على أن يحبني أنا، لأن هذا يفترض مقدماً أنه يعرف من أنا. كما أني لا أعتقد أني سأحب إنساناً؛ لأن هذا يفترض بدوره مقدماً أنه سأجد يوماً ما ، وهذه معجزة المعجزات، رجلا في مثل مرتبتي ومستواي... إن كل ما يشغلني ويقلقني ويسمو بي، لم أجد من يشاركني فيه، ويكون فيه زميلاً وصديقاً "[٤].

١ - زرادشت ص٣١.

٢ - بدوي ص١.

٣ - السابق ص٨٨.

٤ - السابق ص ٨٩.

ويبلغ من اعتزاز نيتشه بنفسه وفلسفته أنه يتحدث عن نفسه بأنه أكبر فيلسوف، وأن فلسفته تقسم تاريخ الإنسانية قسمين[١]. فمن يؤرخ للإنسانية سيقسمها إلى ما " ق ن " وإلى ما " ب ن " أي ما قبل نيتشه وما بعد نيتشه، لا ما " ق م " و " ب م " أي : ما قبل ميلاد المسيح، وما بعد ميلاد المسيح. " أي القرون المظلمة قبل نيتشه وقرون النور بعد نيتشه. سينسى عيسى تماماً بعد إذ أنزله عن عرشه وتربع مكانه "[٢].

ويتحدث عن كتابه"زرادشت"[٣]بأنه مؤلف فريد، ويصفه: " إنه شعر لم يرتفع إليه الشعراء، وإننا لو جمعنا جميعاً كل من شهد العالم من عظماء الرجال، لما استطاعوا متكاتفين، أن يأتوا بحوار واحد من محاورات زرادشت". وأنه النور المتفرد الذي يضئ العالم " لقد سادت الظلمة، فلماذا قضى علىّ أن أكون نورا متفردا متعطشا إلى الظلام "[٤].

ويتحدث عن العلماء بتعالي، وأنهم لا يفهمون : " ما وُجدت مرة بينهم ــ العلماء ــ إلا وكنت فوقهم؛ لذلك أبغضني هؤلاء العلماء؛ فإنهم لا يطيقون أن يسمعوا بمرور أي كائن فوق رؤوسهم؛ ولذلك وضعوا الأخشاب فوق رؤوسهم، وأهالوا فوقها التراب والأقذار، ليخنقوا وقع أقدامي، ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علما أقلهم إدراكا لأقوالي"[٥].

ومن يريد أن يصل إلى العلم الحق، فعليه أن يتبع نيتشه فقط دون سواه "على الإنسان أن يتعلم ليبدع، وعليه أن يأخذ عني دون سواي الطريقة التي تبلغه العلم، من له أذنان سامعتان فليسمع"[٦]. علينا ألا نهتم بآراء الغير؛ لأننا نعرف ما هي مقاييسهم وموازينهم، وإذا كنا

---

١ - السابق ص ٩٨.
٢ - المفكرون ص٤٢٣، ٤٢٤.
٣ - قصة الفلسفة الحديثة ص٥٢٤
٤ - زار ص ٩٠.
٥ - السابق ص ١٠٧.
٦ - زارا ص ١٧٥.

نحن موضوع هذه الآراء وجب علينا أن نتلقاها بالإشفاق على أربابها "[١].

وكان نيتشه في حديثه يفكر دائما بأنه يتحدث للمستقبل، وأنه يستشرفه، وأن أفكاره لن تفهم إلا بعد مائة عام[٢].

منهج نيتشه في فكره :

أوضح نيتشه منهجه في فكره، وفي تعامله مع المواقف ومع الناس، وهذا المنهج يقوم على إظهار ما يراه صوابا من وجهة نظره، والصمود عليه، والوقوف في مواجهة مخالفيه، مهما كانت الانتقادات الموجهة إليه. يقول نيتشه: " لا يكفي لطالب الحقيقة، أن يكون مخلصا في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه، ويقف موقف المشكك فيه ؛ لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه، بل يهيم بها لذاتها، ولو كان في ذلك مخالفا لعقيدته، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه، وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها.

إياك أن تقف حائلا بين فكرتك وبين ما ينافيها، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين.

عليك أن تُصلي نفسك كل يوم حربا، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر، أو تجنى عليك جهودك من اندحار، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك"[٣].

وبين أنه يجب التعامل مع البعض بالقسوة والشدة، وأن النفس هي ألد أعداء الإنسان، يقول: " إن من الناس من يجب عليك ألا تمد إليهم يداً، بل مخلباً ناشباً. غير أن أشد من تصادف من الأعداء خطراً، إنما هو أنت. وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك "[٤].

والحقيقة مبنية على الإرادة، التي لا يمكن لشئ أن ينال منها " إن فيّ

---

١ - السابق ص٢٩١.
٢ - ز كريا ص٩.
٣ - زارا ص٩.
٤ - السابق ص٥٢.

شيئاً لا تنال منه السهام مقتلاً، ولا قبل لأحد بدفنه؛ لأنه يزحح الصخور عنه، فتتحطم، وما هذا الشئ إلا إرادتي. والإرادة تجتاز مراحل السنين صامتة، لا يعتريها تحول وتغير، إن إراداتي قديمة لا تني، تدفع قدميّ إلى السير، فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء"[١].

كما اعتمد نيتشه على عدم الخلود إلى الدعة في الفكر، وعدم التسليم بما قاله السابقون، فقال على لسان راويه "زرادشت" : "ما أنا إلا رحالة، ومتسلق مرتفعات، وما تستهويني منبسطات الأرض، ولا يستقر بي مقام، ومهما قدر عليّ، ومهما وقع لي، فلا تعدو الحوادث أن تكون في نظري رحلة واعتلاء... إن من فرط في ادخار جهوده، لا يلبث أن يبتلي بالخمول، تبارك كل جهد يشد العزم، فلا خير في أرض تدر اللبن والعسل. ومن يطمح إلى الإحاطة بأمور كثيرة، فليتدرب على إرسال أبصاره إلى ما وراء حدود ذاته، وعلى كل متسلق للذري، أن يتعزز بمثل هذا الحزم؛ إذ لا يسع من يتحرى الأمور متجسما بفضوله إلا الوقوف عند أسهل الأفكار منالا "[٢]. "كلماتي قاسية ، تخدش أسماع المتأنقين، وهي أشد وطأة على أسماع زعانف الكتاب المسلحين بالأقلام. ما يدي إلا يد مجنون، فويل منها لألواح الشرائع ومنيعات الحصون. وما قدمي إلا حافرا جواد يتراكضان على الأجاد وفي الأغوار، فأحس بروح إبليس ينفخها المرح في وأنا أنهب أشواطي"[٣].

ولعل من الأمور الواضحة لدى نيتشه ، وسنلاحظها كثيرا أثناء البحث، الكثير من التعارض بين أقواله، ونسوق هنا مثالا واحدا على هذا. فإنه دعا إلى القوة، وأن الإنسان إن لم يكن قويا فيجب التخلص منه، أو يتخلص هو من نفسه. وفي كلام له ، وكأنه يتحدث إلى الدنيا أو إلى الحياة، وبعد سجال

---

١ - السابق ص٩٥.

٢ - زارا ص١٢٧، ١٢٨.

٣ - السابق ص١٦٢.

طويل يقول: "وتراشقنا اللحظات، وعدنا نسرحها على المروج الخضراء وقد دغدغها نسيم الماء، واستخرطنا كلانا بالبكاء، وعندئذ شعرت أن الحياة أعز عليّ من حكمتي"[١].

جذور فكر نيتشه ومن تأثر بهم وأثر فيهم

لقد أخذ وتأثر نيتشه في الكثير من آراءه بأفكار وآراء سابقة أو معاصرة له. ومن أهم من تأثر بهم:

١ـــ السوفسطائيون. والسوفسطائيون كما هو معلوم، جماعة ظهرت في بلاد اليونان، كانوا يطعمون الناس الجدل بأجر، وكانوا يلبسون على الشباب في المفاهيم، وكانوا ينكرون إمكان وجود معرفة، حتى ماعت الكثير من المفاهيم والحقائق، والحقيقة عندهم ذاتية نسبية، تختلف باختلاف الأفراد. "وكادت الموجة السوفسطائية أن تقضي على الفلسفة ، لولا أن قيض الله لها سقراط الذي عمل على انتشالها من بين براثن العبث السوفسطائي، ورد لها اعتبارها "[٢].

وكان مما قال به السوفسطائيون قديما، وتأثر به نيتشه " أن الفضائل من وضع الضعفاء، قصدوا بها إلى قهر الطبيعة، وكبح شهواتها، ومنع الأقوياء من السيطرة عليها "[٣] ويعبر نيتشه عن هذا بقوله: " حقا لقد ضحكت ملئ شدقي على هؤلاء الضعفاء الذين يحسبون وهما أنهم أخيار بررة، لا لسبب سوى أنهم ضعفاء عجزة، تنقصهم براثن الأسود" ــ وسيأتي إن شاء الله مزيد من النصوص تبين مذهبه ــ .

ولكن نيتشه كان أكثر شذوذاً وتطرفاً من السوفسطائيين؛ وذلك لأنهم كانوا ضعاف الإيمان بمبادئهم ، يلبسون على الناس، لا توجد عندهم مبادئ ثابتة أو قواعد

---

١ - زارا ص ١٩٤.

٢ - تمهيد للفلسفة .

٣ - الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها. د. توفيق الطويل ص ٤١. ط دار النهضة العربية . الطبعة الثانية . سنة

راسخة، ولكن نيتشه حاول أن يؤسس كلامه على دعائم يظن أنها ثابتة، ويستشهد عليها من أحداث التاريخ ــ كما سيتضح ــ . كما أن السوفسطائيين وإن أباحوا عصيان القوانين، ولكن مع التخفي والتظاهر بالصلاح والتقوى، إلا أن نيتشه كره ذلك لمجتمع الأقوياء مجتمع السادة، وللسوبرمان الذي يجمع كل الصفات والمثل العليا.

ومن السوفسطائيين الذين تأثر بهم نيتشه " كيسكاليس" صاحب مذهب القوة، والذي بين أن القوانين الأخلاقية ، ليست إلا مبتدعات جديرة بالإزدراء هي وأصحابها الذين وضعوها، ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من قصاصات أوراق، والإرادة الوحيدة الجديرة بالاعتبار هي إرادة القوة، وأنها الحق الحقيقي الذي يطو ولا يعلى عليه إن القوة هي كل شئ، وهي وحدها التي تقرر الحق[1].

٢ــ ماكيافيللي : تأثر نيتشه كثيرا بماكيافيللي، إلا أنه أخذ عنه أسوأ وأشد وأردأ ما في نظرياته، وترك بعض الجوانب المضيئة والإيجابية في فكره.

وحتى يصح الحكم في هذا ، ونعرف الفرق الكبير بينهما وبين فكرهما نعرف تعريفاً موجزاً بماكيافيللي ١٤٦٩ ــ ١٥٢٧م ، وهو سياسي، ومؤرخ إيطالي، أحد أعلام عصر النهضة في أوربا، شارك في الحياة السياسية في إيطاليا، واعتزل السياسة متفرغا للتأليف. عرف في تاريخ الفكر السياسي بمؤلفه الشهير " الأمير" ، الذي كتبه سنة ١٥١٣م، وبكتابه الخطب. أيد في كتابه الأمير نظام الحكم المطلق، وأحل فيه للحاكم اتخاذ كل وسيلة تكفل استقرار حكمه واستمراره، ولو كانت منافية للدين والأخلاق، وذلك على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة. غير أنه عاد في كتابه " الخطب" فأيد النظام

١ – راجع: تأملات في فلسفة الأخلاق . د. منصور على رجب ص٣٣٥. ٥٣٦.

ط مكتبة الأنجلو المصرية . طبعة ثانية سنة ١٩٥٥.

الجمهوري الذي يقوم على سيادة الشعب، وعدد مزايا هذا النظام، وفضله على النظام الملكي[1].

من أفكار ماكيافيللي أنه أعلن أن الإنسان في الأرض إله، وعلاقة المواطن بالمواطن من أهم العلاقات، وغاية الإنسان ينبغي أن توضع بين النجوم، أو في عالم الأسرار، بل يجب أن تلائم طبيعة البشر وطينته، ولهذا كانت الصدارة لهذه الحياة لا للحياة الأخرى ــ لا إلغائه ــ وعلى هذا فلابد من إثراء شخصية المواطن وإخصابها، لا العمل على إقفارها وإجدابها، ولابد من تربية ملكات الإنسان، ومن توسيع أفق العقل. ومن الضروري أن نطعم حياتنا بالنشاط والخصوبة والتنويع ما وسعنا ذلك. ويجب أن يسعى الإنسان دائما، ويجتهد حتى يكون شيئا. كما رفض ماكيافيللي التواكل في صورة نسك، أو النسك في صورة تواكل، أو مجرد الصلوات والانقطاع لها دون تأكيد الذات بالأعمال النافعة، ولو أدى الأمر إلى القسوة التي لا تعرف الرحمة. " إن مثالية الحياة تتحقق لو جنى أصحابها من فردوسها ثمار الذكر والامتياز ، والتفوق والاستعلاء، ولكي نجني هذه الثمار، التي لا تظهر إلا في أعلى شجرة الحياة، لابد من أن نكون عمالقة لا أقزاما، وأقوياء لا ضعفاء. ومن الضروري أن نتخلص من مذاهب الضعف والاستكانة العمياء، وعقائد العجز والعاجزين. والمسيحية دين الضعفاء؛ لأنها لم ولن تضمن للمراكز الموجهة للجماعة انتصارا في حرب أو معركة، ولن تكفل لها قضاء على فتنة أو مؤامرة، وبها لن تستطيع الدولة صيانة نفسها، أو المحافظة على كيانها "[2].

ومن خلال عرض بعض آراء ماكيافيللي ، نرى أن نيتشه قد تأثر به في وجوب وجود مجتمع قوي،

١ – انظر: الموسوعة العربية الميسرة . إشراف : محمد شفيق غربال ج٢ ص١٦٢٨. ط د ار الجيل سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٢ – نيقولا ماكيافيللي: دراسة تحليلية محورها الأمير. ترجمة وتعليق : محمد مختار الزقزوقي ص١٣٤،١٣٣. ط مكتبة الأنجلو .

وأن المسيحية تجعل من الضعف فضيلة، ومن العجز إحساناً، ومن الوضاعة والجبن تواضعاً، ومن الخضوع الذليل طاعة وانقياداً. وأن الضعفاء موقفهم أمام الأقوياء موقف سلبي، وأنهم جبناء.

ولكن رأى ماكيافيللي هذا لم يكن آخر رأيه ــ كما عرفنا ــ ، كما أنه أعلى من شأن الفرد، وآمن بوجود إله. كما أنه بين علاقة الدولة بالفرد، أو الحاكم بالمحكوم، فهو: " لم يقل أكثر من أن واجب الدولة ألا تتقيد في ساعات الضرورة بأية أخلاق فردية في حراسة سلامة الجماعة " ، ونيتشه حتى يخرج من هذا قال بأن أعمال الدولة، لا تدخل في حيز الأخلاق، وليست لها طبيعة الخير أو طبيعة الشر، ولا تنتسب إلى أي منهما "[1].

ولا شك أن هذا التعليل من نيتشه خاطئ تمام الخطأ، فإنه في كثير من كلامه ــ كما سيتضح من خلال عرض آرائه إن شاء الله تعالى ــ أن أعمال الدولة، وأخلاق السادة الذين يسوسونها أفعالهم خيرة ويحكم عليها بالخير، بعكس أفعال وأخلاق العبيد، فهي يحكم عليها بالشر.

٣ــ بسمارك وقبول المجتمع الألماني لفكرة القوة : يعد من أقوى العوامل والشخصيات التي أثرت في نيتشه في قوله بفلسفة القوة هو بسمارك ، فقد كان يقول بوجوب فرض القوة، وأنها هي الوسيلة الناجحة لسيادة الشعوب والسيطرة عليها، وكان من أفكاره أنه "لا إيثار بين الأمم" وأن شئون الدولة لا ينبغي أن تقررها أصوات النائبين، ولا بلاغة الخطباء، ولكن أداتها هي الدم والحديد "[2].

وتطبيق هذا الكلام عمليا قام بسمارك في مدة وجيزة جدا بزعزعة فكرة الديمقراطية لدى الناس، وفرض قيادته على النمسا، وأخضع فرنسا تحت سيطرته، وأدمج الدويلات الصغيرة في ألمانيا لتكون

١ – راجع : السابق ص١٤٦.

٢ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥٠٩.

جميعا إمبراطورية كبرى تعتمد على فرض منطق القوة لا قوة المنطق. أخلاق القوة لا قوة الأخلاق.

وإذا كان بسمارك قد فرض هذا فلا شك أنه صادف قبولا جيدا، واستحسانا لدى الشعب الألماني؛ لأنه يتوق إلى القوة والتميز وفرض الذات. فكان نيتشه هو الصوت القوي المعبر عن منطق القوة لبسمارك والشعب الألماني " لكن هذا الاتجاه الحربي الذي أخذ يتزايد في ألمانيا، كان لابد له من صوت يعبر عنه، كما كان لابد لإرادة القتال ــ التي كانت تجيش في صدر ألمانيا ــ من فلسفة تبررها وتؤيدها ؛ لأن الديانة المسيحية ــ والديانات السماوية الصحيحة أيضا ــ لا تدعمها، وفي الفلسفة الداروينية لها دعامة قوية إذا ما أسعفها قليل من الجرأة. فصادفت هذه الجرأة في نيتشه، فأصبح هو اللسان المعبر عن دخيلة أمته "[1]. وكان لسان حال وقول نيتشه في هذا الوقت يشيد بأعمال العنف الدامية التي كان ينتهجها بسمارك مع الشعوب، وفي المقابل يقلل من شأن مهنته ــ الفكر ــ لأنها تدعو إلى الهدوء والانكماش والانطوائية.

٤ــ الكونت دوغوبينو : ألف كتابا سماه: " تفاوت العروق البشرية" ، أخذ منه نيتشه الكثير من آرائه وأفكاره، حتى قيل عن هذا الكتاب: " أحد الكتب المرافقة لوسادة الفيلسوف نيتشه خلال وقت ما " ، فقد أخذ منه فكرة أن كل حضارة تحوي على عرقين ، عرق السادة وهم أرستقراطيون، محاربون، فاتحون، ضوار، شقر، آتون من الخارج. وعرق المقيمين المسالمين العاملين الذين تحولوا إلى عبيد للعرق الأول، أو أصبحوا خداما له على أقل تقدير. ومن خلال وجود وتقابل هذين العرقين، أصبح هناك تميزا بين ما هو أعلى وما هو أدنى، وهذا التميز لا يمكن لأمة أن تحافظ عليه كثيرا، وبهذا يتكون نوعين من الأخلاق: أخلاق السادة أو أخلاق النبلاء، وأخلاق العبيد. الأخلاق القائمة على التميز،

١ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥٠٩.

والأخلاق القائمة على العامة، والقطيع الخدوم المسالم. وحتى تتم سيادة النبلاء ينبغي عليهم أن يعرضوا سيادتهم وأنظمتهم القاسية ومعاييرهم الرجولية على غيرهم. وإذا حدثت تسوية فإنها تكون مؤذنة بالقضاء على كل حضارة راقية[1].

٥ـ دارون . مما هو معروف من فكر دارون، أنه قال بتطور الأحياء بعضها عن بعض، فهذه الكائنات جميعها وجدت من جرثومة ذات خلية واحدة ـ مع خلاف في فهم كلامه هل هذه الجرثومة نشأت ووجدت بذاتها أو أن لها موجد أوجدها ـ ، وأن هذه الجرثومة أخذت في التطور والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، حتى وجد منها القرد، وتطور كائن آخر من القرد ثم اختفى، وهذا الكائن هو حلقة الوصل بين القرد وبين الإنسان، ثم وجد الإنسان على قمة هذا الهرم التطوري، فهو يمثل أرقى وأعلى درجة في درجات سلم التطور هذا. وقد أيد فرضيته هذه ـ التي هي ليست علمية ـ بدعامات متهافتة، لا نصيب لها من الصحة، مثل : قانون تنازع البقاء،والانتخاب الطبيعي،والبقاء للأصلح، وغيرها مما اعتمد عليه.

هذا التطور في الكائنات حاول أن يأخذه نيتشه ويطوعه ويطبقه في مجال الأخلاق ، حيث يقول فيه وهو يخاطب مجموعة من الناس في ساحة عمومية : " بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان، بدل اندفاعكم للتفوق على الإنسان، وهل القرد من الإنسان إلا سخريته وعاره؟ لقد اتجهتم إلى طريق مبدؤها الدودة، ومنتهاها الإنسان، غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف به ديدان الأرض. لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود

١ – راجع : الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشة . جان إدوار سنبله، ترجمة : تيسير شيخ الأرض. مراجعة : د. أسعد درقاوي . ص١٩٠. منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي دمشق سنة ١٩٦٨.

في قرديته"[1]. ولا شك أن في هذه العبارة ردا عليه، وتهافت لرأيه في التطور، لأنه إذا كان حتى عصره ـ القرن التاسع عشر ـ لا يزال الإنسان لم ينسلخ عن أصله القردي، فكيف يوجد منه الإنسان المتفوق " السوبرمان" الذي يحل محل الإله ؟

وكما يسخر الإنسان من القرد سيسخر المتفوق من الإنسان " وإني أسألكم أين القرد من الإنسان ؟ إنه مسلاته ، وموضع زرايته، كذلك الإنسان سيصير أمام الإنسان الأسمى أضحوكة ومحل زراية "[2].

فإذا كان الإنسان في قمة الموجودات عن طريق التطور، فإن قمة التطور أيضا في الأخلاق، والذي هو قمة النظام الخلقي هو القوة. فالقوة هي الفضيلة، وهي أم الفضائل التي لا ينازعها ولا يضارعها فضيلة، فأمام القوة يجب أن تنتهي أي فضيلة، فالقوة فضيلة وخير، والضعف رذيلة وشر. فالخير هو الذي يستطيع أن يحيا ويظهر، وعلى هذا فالخيّر هو القوي، والخير هو القوة. أما الشر فهو الضعف. وإذا كان من أسس فرضية دارون تنازع البقاء، والبقاء للأصلح والأقوى، فإن أخلاق القوة ينبغي أن تسود هذا الكون. وهذا ما ذهب إليه نيتشه " فسلم بمقدمة التنازع في الحياة، ولم يتردد في أن يولد منها نتائجها المحتومة في الأخلاق "[3].

ولكن كيف يتم الانتخاب الطبيعي في الأخلاق كما يقول به التطوريون الأخلاقيون؟ يصورون ذلك بأن العقل في نزاع بين الأفكار، والقيم الخلقية بعضها والبعض الآخر، كما يكون هناك نزاع أيضا في العرف والتقاليد والعادات وأساليب الحياة لدى الشعوب، وغير ذلك، فيحدث نزاعا بين مختلف القيم وشتى مقاييس الأفعال عند الجماعة الواحدة في العصر الواحد، حتى ينتهي في نهاية الأمر وبالتدريج ما يكون ملائماً أكثر للبيئة ومطالبها، ويضعف وينتهي ما لا يكون ملائماً لها[4].

١ – زارا ص ٦ .

٢ – المفكرون ص٤٢١.

٣ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥٠٨.

٤ – راجع: الفلسفة الخلقية ص٢٣٧.

وبهذا يكون نيتشه قد فاق دارون في القول بالتطور، فإذا كان دارون بالقوانين السابقة، قال بالتطور، إلا أنه لم يذهب إلى التطور الأخلاقي؛ لأن الإنسان كائن أخلاقي، فدارون " حين عرض للبحث في الأخلاق، أشفق من تطبيق الانتخاب الطبيعي، خشية القضاء على أنبل جزء من طبيعة الإنسان، فالإنسان عنده الكائن الوحيد، الذي يعتبر كائنا أخلاقيا... وجاء نيتشه فطالب في جرأة بتطبيق نتائج التنازع على البقاء في مجال الأخلاق ... فنهض نيتشه بهذه المهمة، وتصدى لإقامتها على أساس بيولوجي، وانتهى بهذا إلى التمكين لمبادئ القوة والكبرياء والأنانية، وأحلها مكان الطيبة والمسكنة وإنكار الذات "[1].

وإذا كان التطوريون قالوا بتطور الإنسان عن مخلوق أدنى، فليسير هذا التطور في غايته حتى يصل إلى الإنسان الأعلى المتفوق، الذي يحل محل الإله، والذي يتمكن بقوته وإرادته من السيطرة على الآخرين ويخضعهم لسلطانه، وإن كان لا يعتمد على قوانين التطور الطبيعية فقط، بل لابد معها من أمور أخرى ــ كما سيتضح فيما بعد إن شاء الله تعالى ــ .

٦ــ شوبنهور : كان ممن تأثر بهم نيتشه تأثرا كبيرا شوبنهور، وذلك أثناء وجوده في "ليبتزج" تعرف على كتابات شوبنهور، وخاصة كتابه "العالم كإرادة وتصور"، فأعجب بالكتاب وصاحبه، ودعا إلى أفكاره، وجعل شوبنهور أباه. وكان يتحدث عن كتاب شوبنهور هذا بأنه: " مرآة طالعت فيها العالم والحياة، بل وطبيعة نفسي مرسومة في جلال مخيف " وكان يقول: " إنه ليبدو لي أن شوبنهور كان يخاطبني أنا. لقد أحسست فيه شعوره المتحمس، وخيل إلى أني أشهده ماثلا أمامي في كل سطر، كأنما يناديني نداء صارخا، أن انهض لإنكاره وتفنيده"[2].

١ – السابق ص٢٣١.

٢ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥١٢.

كما استفاد نيتشه من شوبنهور في كتابه هذا ما يسمى بإرادة الحياة. فالتغلب على المصاعب والمتاعب والآلام يكون بإرادة الحياة. فالإرادة هي المبدأ المسيطر على الحياة، فتكاثر الكائنات جميعا يكون عن طريق إرادة الحياة.

هذا هو الشق الأول من فلسفة شوبنهور، والذي أعجب به نيتشه، ولكن شوبنهور في الشق الثاني من نظريته يبين أن الإنسان إذا لم يستطع أن يتوائم مع الحياة، وزادت عليه الآلام ، فليضع حدا لها " فالإنسان لو امتنع بإرادته عن الزواج والنسل والتنفس لوضع حداً لآلام هذه الحياة" هذا هو الجانب التشاؤمي أو السلبي عند شوبنهور، والذي رفضه نيتشه والذي جعل من الآلام سبباً للحياة، وكما يقول أحد الباحثين : " وقبل نيتشه فكرة شوبنهور في الإرادة، ولكنه أحالها من فلسفة سلبية، إلى فلسفة إيجابية، فعلى الإنسان أن يستخدم إرادته لا ليموت، بل ليحيا. وإن من الجبن أن تريد نفسك على الموت لتخلص من الآلام . ومن النبل أن تريد نفسك على الحياة رغم الآلام. إن هذا التأكيد الإيجابي على الإرادة، ليسمو بنا فوق أنفسنا، فهو في الحق يحيل الإنسان ملاكا"[1] ونيتشه ناقض نفسه بعد ذلك فقال بالانتحار ــ كما سيتضح فيما بعد.

وفي مرحلة قُرب نيتشه من شوبنهور، أقبل على قراءة الفلسفة ودراستها، وله مؤلفات في هذه المرحلة ــ كما سبق ــ ، إذ وجد في كتب الفلسفة بغيته، من حيث إنها تنظر في العالم والإنسان مباشرة، بعكس الأدب حيث يطلعنا على ذلك من خلال الكتب.

ولكن نيتشه عندما مرض، انقلب على شوبنهور، وثار عليه ــ المرحلة التالية من كتبه ــ ، وكأن المرض ولد لديه حب الحياة والقوة والشجاعة، بالرغم من الآلام التي كانت تعتصره ــ كما سبق ــ وفي هذا يقول: " لم يستطع أي ألم ، ولا

١ – المفكرون ص٤٠٤.

ينبغي أن يستطيع أن يحملني على أن أشهد زورا في حق الحياة كما تبدو لي " أي أن مرضه لن يجعله يقول بعكس القوة والشجاعة، فكان يولد القوة من الألم ومن كلامه أيضا: " إن حياتي عبئ ثقيل، ولقد كنت تخلصت منها منذ زمن طويل، لو لم أر أني وأنا في حالة الألم والحرمان هذه، كنت أقوم بأكثر الملاحظات والتجارب فائدة في الميدان الروحي والخلقي. إن الشره إلى العلم يرتفع بي إلى أعمال انتصر فيها على كل ألم وكل يأس"[١].

ومن هذا الوقت بدأت تتشكل فلسفة نيتشه في نقد الأفكار، والقيم الدينية والأخلاقية، وما يترتب على ذلك من نتيجة طبيعية، من وضع القوة مكان الدين والأخلاق.

٧ــ ريتشارد فاجنر: لقد أثر فاجنر في حياة نيتشه تأثيرا كبيرا.

وكان له مكانة عالية عند نيتشه، فقد كان يصفه : " بأن روحه تسودها مثالية مطلقة، وإنسانية عميقة ، وفيها جلال رائع ، وكل هذا يشعرني وأنا بالقرب منه بأني في حضرة إله "[٢].

ولكنه انقلب على صديقه أيضا كما انقلب على أستاذه.

وقد تأثر نيتشه به في فكرة تمثل جوهر فلسفته. فقد قرأ مخطوطا لفاجنر بعنوان "الدولة والدين" وكان فاجنر ينادي فيه بتحرر الناس من الأعمال الدنيئة، وأنهم يرتفعون إلى فهم الفن " ، ولكنه أدرك أن العامة لا يرتفعون إلى هذا.وإذا كان ليس بوسعهم أن يفهموا هذا ، أو يرتقوا إليه فلابد من قيادتهم إلى خدمة ثقافية هم لا يفهمونها، ويخدمونها بإخلاص حتى درجة التضحية بالحياة، ولابد في المجتمع من وجود خدع لهؤلاء العامة، تبقى على كيان المجتمع. وأهم هذه الخدع، خدعة الوطنية، وخدعة الدين.

٢ – بدوي ص٥٧.

تأثر نيتشه بهذه الآراء، ولكنه دعمها بشواهد من تاريخ الثقافة اليونانية، وكان هذا في كتابه نشأة التراجيديا. وفي هذا الكتاب يشير إلى إلهين ، كانا مقدسين في الفن اليوناني. أولهما: "ديونيسوس" وهو إله الخمر، والمرح، والحياة الصاخبة، واللذة ، والطرب، والموسيقى، والمغامرة، والمخاطرة، وتقبل المتاعب في جرأة وشجاعة.

وثانيهما: " أبوللو" وهو إله السلام، والدعة ، والبطالة، وإحساس الجمال، والتأمل العقلي، والنظام المنطقي، والهدوء الفلسفي، وهو إله التصوير، والنحت، والشعر الغنائي.

اتحد هذان الإلهان ، فأنتجا شيئاً رائعاً في الفن اليوناني فبامتزاج القوة والرجولة في "ديونيسوس" مع جمال وهدوء ووداعة "أبوللو" أنتجا الموسيقى والحوار، وإعلان التشاؤم عند ديونيسوس كان عن طريق الفن، وقد تغلب اليونانيون على حزنهم بسمو فنهم " فمن شقائهم ولدوا مناظر الدراما "المأساة" ليروا في مآسيهم ما يبرر الحياة؛ إذ وجدوا في تبرير الوجود، ضرباً من الفن والجمال، فالتشاؤم وحده دليل الضعف والتدهور، والتفاؤل وحده علامة الفكر السطحي. أما التفاؤل الحزين أو التفاؤل في المأساة، فهو صفة الرجل القوي، الذي ينشد عمق التجربة واتساعها. ولو كان ذلك على حساب ما يلاقي من نصب وأسى، وإنه ليسره أن يجد أن التنازع هو قانون الحياة "[١].

كما حلل نيتشه في هذا الكتاب تاريخ اليونان، وأنه مر بمرحلتين. الأولى في القرن السابع والسادس قبل الميلاد. وفيه كان اليونانيون لديهم حياة أصيلة وقوة ساذجة، وتداخلهم شجاعة تدفعهم إلى قبول الحياة ومخاطرها. فكانوا يعتقدون بالقوى الطبيعية، وأن واجب الإنسان أن يخلق لنفسه فضائله وآلهته، فازدهرت التراجيديا، وكانت تدور على توكيد الإنسان لقوته في مغالبة القدر.

١ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥١٧.

١ – تاريخ الفلسفة الحديثة أ. يوسف كرم ص٤٠٦، ٤٠٧. ط دار المعارف . طبعة خامسة

والمرحلة الثانية تبدأ من سقراط الذي هدم بتهكمه المعتقدات الساذجة التي كانت قوة الأجداد، وما فعله سقراط وأفلاطون يحمل طابع الانحطاط. أما فرح اليونان وصفائهم إنما كان ثمرة عصور الاستعباد.

وكانت هناك فئة مولعة بالفن والمجد، تعلن أن العمل اليدوي شئ مخجل، ويستحيل على من يقوم بالعمل اليدوي والمعنى بتحصيل رزقه أن يكون فنانا ــ أي إنسانا ممتازا ــ " فاصطنعوا الرق لكي ييسروا لأقلية من البشر الأولمبيين أن يتوافروا على الفن، فالرق ضروري للثقافة والفن. وأصل الرق القوة الحربية التي هي الحق الأول. وما من حق إلا وهو في جوهره اغتصاب وامتلاك، فالحرب ضرورية للدولة، كضرورة الرق للمجتمع "[1].

ففترات الإزدهار مرهونة بالحروب والقوة، وفترات الانحطاط مرتبطة بالمنطق والفلسفة " إن الشعب في فتوته ينتج الأساطير والشعر، كما أنه في تدهوره ينتج الفلسفة والمنطق. فقد أنجبت اليونان في صباها ــ فترة القوة ــ "هوميروس" و "أسخيلوس" ، ولكنها جاءت في عهد الانحطاط بـ " يوربيدز" وهو الذي حاول أن يكتب القصة بالمنطق، ويهدم الأسطورة بالعقل، وهو صديق سقراط، الذي استبدل بموسيقى "ديونيسوس" حوار أبوللو وخطابته"[2].

لقد كان "سقراط" و " يوربيدز" سببا في الانحطاط اليوناني، ونهاية عصر الأبطال، وقد أدركا خطأ ما هما عليه في آخر حياتهما ــ كما يزعم ــ " ولكنهما أذعنا للفن في وقت متأخر، بعد أن ترك المنطق والعقل آثاراً لا تنمحي، فتدهورت بها المأساة والأخلاق عند اليونان. نعم لقد سلم الشاعر " يوربيدز" ، والفيلسوف سقراط أخيراً بقوة الفن ، ولكن بعد أن عمل المنطق فيهما عمله ، فكانا نهاية لعصر الأبطال ، وخاتمة لفن " ديونيوس "[3].

---

١ – تاريخ الفلسفة اليونانيةص٤٠٨، ٤٠٩.

٢ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥١٨، ٥١٩.

٣ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥١٩، ٥٢٠.

وكان نيتشه يأمل من فاجنر أن تكون موسيقاه تفعل بالشعب الألماني ما فعلته موسيقي ديونيسوس بالشعب اليوناني قديماً ، فيتولد في الشعب الألماني عصراً جديداً من عصور الأبطال ، وعسي أن تتولد المأساة من روح الموسيقي مرة أخري . ولكن فاجنر خيب أمل نيتشه في هذا ، فلهذا انقلب عليه، وصار عدوا لدودا له بعد الصداقة القوية. " لقد أصبح فاجنر بالنسبة إلى نيتشة مهرجاً عبقرياً، تنقصه المواهب العقلية، وعرافاً مخادعاً، ودجالاً شعبياً.

وفي الوقت الذي توسم فيه نيتشة هذا في فاجنر، وأنه يأتي بموسيقى تعيد مجد ألمانيا مرة ثانية إذ به يجد أن فاجنر يقوم بتأليف دراما موسيقية جديدة تحت عنوان " بارسيفال" يقدمها فاجنر إلى الكنيسة يرجو من ورائها عفوها وصفحها عنه في نهاية حياته، ولا شك أن هذا المنطق لا يروق لنيتشه، وهو الذي ندب نفسه ليكون عدواً للمسيح ؛لأجل ذلك افترق عنه،ولم يره بعد ذلك[1].

نيتشه والوجودية: إذا كان التيار الوجودي، يهتم بوجود الإنسان وفرديته، ولا يعبأ ولا يهتم بالمجتمع، ولا يهتم بالقيم الدينية التي تفرضها قوة عليا، سواء كانت إلهية أو إنسانية، وترجع القيم كلها إلى الإنسان، فإن نيتشه يعد رائداً في هذا المجال، فهو بحق من رواد الفلسفة الوجودية المعاصرة. فنيتشه كما رأينا ــ وسنرى ــ أرجع القيم كلها إلى الإنسان لا لإله، ولا لسلطة حاكمة، كما أكد فردية الفرد وحريته وقوته، واهتم بالأفراد الأقوياء، وصولاً إلى الإنسان الأعلى. ومكن للمسئولية، وناصر الذاتية، وحقر من موضوعية البحث عن الحقيقة، وربط بين الفلسفة والحياة، فأصبحت الحقيقة إنسانية، وليست ميتافزيقية منطقية"[2].

---

١ – زكريا ص ٣٠، ٣١.

٢ – الفلسفة الخلقية ص٣٣٤.

ومن أهم أوجه التشابه بين نيتشه والوجودية، أن أهم صفات التفكير الوجودي، تأكيده تجدد الوجود الإنساني، فالإنسان وجوده سابق على ماهيته، فليس له ماهية ثابتة أو سابقة، وهو الذي يكون ماهيته من خلال وجوده، " ويكاد نيتشه يعبر عن هذه الفكرة ذاتها، حين يصرح بأن الإنسان في محاولة دائمة، لا تعرف الاستقرار، فهو لا يرضى بشئ، ولا يقف عند حد. والإنسان على حد تعبيره هو الحيوان الذي لم يثبت بعد، وهو الحيوان الذي لم يصنف أو يحدد نوعه... فالإنسان خالق ذاته، وفكرة إرادة القوة، تعني أن الإنسان كائن يتجاوز ماهيته على الدوام، ولا يقف بها عند حد "[1].

كما أن فكرة موت الإله التي نادى بها نيتشه تنادي الوجودية بأنه غير موجود.

ولعل من أوجه الشبه أيضا أن فلسفة ــ نيتشه ــ كما سنرى ــ انعكاس لحياته، وما مر بها من أحداث، وهذا أصل عند الوجودية، وهو ارتباط الفكر بالحياة ، وتوقف كل منهما على الآخر.كما أن الوجودية تهتم بفكرة العدم، وقد تحدث نيتشه عن أنواع الموت ، وتخلص الإنسان من حياته إذا دعت الضرورة، وإذا أدى رسالته[2]. وسيتضح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وإذا كان هناك أوجه شبه بين نيتشه والوجودية، فإن نيتشة غالي كثيرا عن الوجودية، فالوجودية اهتمت بفردية الفرد، أيا كان هذا الفرد، سواء كان قويا أو ضعيفا، فلم تنادي بالقضاء على الضعفاء كما فعل نيتشه.

موقف نيتشه من الدين :

سبق أن عرفنا نشأة نيتشة الدينية، فهل ظلت هذه النشأة ؟.

---

١ - راجع : زكريا ص ٤٣، ٤٤.

٢ - راجع : المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه د. محمد سيد أحمد المسير.ص٤٣١. ط دار المعارف الطبعة الثانية .

الحقيقة أن نيتشه يعد من الفلاسفة القلائل، الذين شكلت حياتهم توجههم الفلسفي والفكري. مما كان له أبعد الأثر في تشكيل فكرة مسألة تدينه أو رأيه في الدين وفي الإله. والحقيقة أيضا: أن النصوص المنقولة عنه متضاربة بعض التضارب، حتى في المرحلة العاقلة، المرحلة الأخيرة من عمره.

ويمكن أن نقسم موقفه من الدين إلى مراحل :

المرحلة الأولى: مرحلة الطفولة والتأثر بالأسرة التي نشأ فيها، وكما علمنا، كانت نشأة مسيحيته خالصة.

أعقب ذلك وقبل المرحلة الثانية أنه مر بفترة كان مقراً فيها بالله تعالى، معترفاً بأنه وحده الذي يلجأ إليه في الشدائد والمحن، ولكنه لا يعرف كيف يصل إليه؟ فهو مجهول بالنسبة له. وله عبارات كثيرة دالة على هذا منها الرسالة التي وجهها إلى الله المجهول ــ في زعمه ــ يقول فيها : " مرة ثانية وقبل أن أستمر في طريقي. وأطلق نظري إلى الإمام ــ أرفع يدي العاريتين. إليك ! فأنت ملجأي وملاذي. وأنت الذي كرستُ له في أعمق أعماق قلبي، مذابح يقدس عليها اسمك . لكي يدعوني صوتك . دائما إليك. وعلى هذه المذابح تتلألأ.

هذه الكلمة : إلى الله المجهول. إني أريد أن أعرفك أيها المجهول. أنت يا من نفذت إلى صميم روحي. ويا من تمر على حياتي مرور العاصفة. أنت يا من لا يدركك شئ، ومع هذا فأنت قريب مني. وذو نسب إليّ ! . أريد أن أعرفك، وبنفسي أن أعبدك "[1].

وينقل مترجم كتاب زرادشت عن كتاب لمؤلف يدعى "دانيال هالافي" حديثاً دار بين نيتشه وبين صديقته "لوسالومه" عن مراحله الفكرية والعقدية "هكذا بدأت مغامراتي الفكرية.....، فإلى أين أتجه... أفلا يجدر بي أن أعود إلى الإيمان، أو أن أوفق إلى إيمان جديد ؟ على أنه

---

١ - بدوي ص٣١، ٣٢ .

خير لي، إذا أنا لم أوفق إلى الوصول لهدف، أن أعود أدراجي، من أن أقف في حيرتي"[١].وربما يكون قد وفق لهذا في حديثه عن الإسلام ــ كما سيأتي ــ .

وعندما التقى "زارا" مرة بفتى جالس تحت شجرة كبيرة، قال له : " لو أنني أردت هز هذه الدوحة بيديّ ما تمكنت ، غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء. هكذا نحن قلوبنا ، وتهزنا أياد لا ترى "[٢] ولكن هل هذه الأيادي هي الإله ؟ إشارته المستمرة بموت الإله لا تدل على هذا.

المرحلة الثانية : مرحلة الشباب. وفي هذه المرحلة بدأ يبتعد عن الدين، بل ويرفضه، ويشكك فيه.

والغريب أن نظرته أو موقفه من الدين هذا، نشأ كرد فعل لما منى به من علل جسدية، فبدلاً من أن تكون هذه العلل سبباً في قربه من الله، وخاصة أن البيئة التي نشأ فيها تساعده على ذلك، كانت سببا في بعده عن الإله وعن الدين.

فهو كشاب يريد أن يعيش مثل باقي الشباب في عصره وفي بيئته، وأن ينهل من متع الدنيا. فجعل يتسمع إلى الكلام البذئ، ويتردد على البيوت المشبوهة من حين إلى آخر، وقرأ من الكتب التي تتناول هذا الجانب، ولكن صحته أبت عليه ذلك، فكان فاتراً تجاه الجنس الآخر، فهجر كل ذلك مضطراً ، زاهداً في الدنيا، ساخطاً على الإله الذي منعه القوة الجسدية.

ففي مرحلة تعلمه في "جامعة ليبزج" ، ترك الوعظ، وابتعد عن الدين، وكان السبب في هذا ضعف بنيته. " فهو قد بدأ يشك في عقائد الدين، وفقد الإيمان بحياة الإيمان، ولم يكن يدري هل يستطيع الإنسان أن يحيا بروح قوية في جسم ضعيف؟ . وكان يتوق فوق كل شئ إلى قوة الجسم، إلى فتوة الشباب، وكان يمتعض من أنه ولد رجلاً عجوزاً، وهو يريد الإيغال في بحر

١ - زارا ها مش ص٢٤.

٢ - السابق ص٣٣.

الحياة اللجاج، حتى يلاطم الموج صدره، ولكن قدميه ترفضان مجاورة الساحل "[١].

مرض نيتشه جاء معه بنيتجة عكسية، فرفض الدين؛ لأن الدين المسيحي في حياة القسيسين ــ كما يزعمون ــ يشجع على الابتعاد عن الدنيا، فهو يرفض ضعفه، والدين يشجع إلى الوصول إلى النتيجة التي وصل إليها بضفعه رغماً عنه. كما أن دعوة القديسين إلى الابتعاد وإلى احتقار شهوات البدن، لعلها لم تكن احتقاراً وابتعاداً رغبة عن هذه الأشياء، فلعلهم حرموا منها أيضا مضطرين مثله. فقد كان يقول: " ألا يجوز أن هؤلاء القديسين، قد جعلوا من البحر فضيلة مكرهين"[٢].

وقد أمعن نيتشه في الإنكار والشك في غايات الدين، فبدأ الكثير من الأسئلة والأوهام تتوارد على ذهنه: " لماذا يخجل الإنسان من جسمه، إذا كان تام الصحة، تام القدرة على أداء وظائفه؟ أليس الأرجح أن بعض مرضى الأعصاب، قد تخيلوا فكرة الخطيئة الأصلية ليبرروا ضعفهم العصبي، وأن كل الأجيال التالية من غير المرضى ، تبعوا أهل الشذوذ هؤلاء كأنهم قطيع من الغنم؟ أليس ما يسمونه مبادئنا الأخلاقية خداعاً وزوراً؟ أليست الحياة تهدف إلى السعادة؟ أليس مجرد العيش يعني الرضا بالحياة؟ وما هو الدور الذي يؤديه الدين إذن؟ "[٣].

ومن خلال هذه الروح القلقة، والفكر المضطرب، والبدن الواهي المضمحل. وصل نيتشه إلى نتيجة حتمية لديه، وهي أن الدين يساوي ويرادف إنكار الحياة. فالحياة معناها لا دين، والدين معناه لا حياة.

ونيتشه يصف الإله في هذه المرحلة بأوصاف غير لائقة. فيقول على لسان زرادشت لقديس قابله وهو هابط من عزلته يتلو بعض

١ - المفكرون ص٤٠١.

٢ - المفكرون ص٤٠٢.

٣ - السابق نفس الصفحة.

الأناشيد الدينية، وبعد انصرافه: "إنه لأمر جد مستغرب! ألما يسمع هذا الشيخ في غابته أن الإله قد مات"[١].

ويصف نيتشه الإله بأنه مضطرب، وأن الإنسان أفضل منه، وإذا كان موجوداً فلابد من أن يكون في صورة إنسان أي عاجزاً، " وترامى زارا يوماً بخياله إلى ما وراء الإنسانية، فترائى هذا العالم لديه، كما يراه جميع المأخوذين بالعالم الثاني، خليقة رب متألم مضطرب ... وما كان هذا الإله إلا إنساناً بل جزءاً من شخصية إنسان؛ لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي، إنه لشبح من هذا العالم، لا من وراء هذا العالم "[٢].

وبين نيتشه أن الخير من ذات الإنسان، وليس تابعاً لإرادة إله. " إن هذا هو خيري الذي أحب، إن هذا ما يثير إعجابي، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة، لا أريد هذه الأشياء تبعاً لإرادة رب من الأرباب، ولا عملاً بوصية أو ضرورية بشرية. فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا، وجنات خلود "[٣].

وعلى الرغم من أن نيتشه أنكر وجود الإله إلا أنه يتصوره في صورة حسية فهو قوي، يمرح ويرقص: " إن الإله الذي يمكنني أن أؤمن به إنما هو الإله الذي يمكنه أن يرقص "[٤].

كما أن وجود هذه الموجودات جاءت عن طريق الصدفة، لا عن طريق إله مدبر للعالم حكيم عليم مريد قدير " إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء، وقد أرجعتُ كل الأشياء إلى هذا النسب فأنقذتها من عبودية المقصد والهدف. وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عاليا، ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء؛ إذ علّمت أن ليس من إرادة أبدية تطو بها لتبسط مقاصدها فوقها "[٥].

---

١ - زارا ص٥ .

٢ - زارا ص١٠٨.

٣ - السابق ص٢٧.

٤ - السابق ص٣٢.

٥ - زارا ص ١٣٩.

ويعيب على المتعبدين ويباهي ويفاخر بكفره. " أنزلوا لعناتكم على ما فيكم من جبناء الأبالسة، الذين لا يحلو لهم غير الأنين، وضم السواعد إلى الصدور للعبادة، هبوا منادين بكفر زارا وإلحاده، وارتفعت فوق أصواتهم أصوات من يعلمونهم الاستكانة والصبر، فلا أملك نفسي من أهمس في آذان هؤلاء المعلمين لأقول لهم: إنما هو زارا الكافر الملحد، ولولا شعوري بالاشمئزاز منهم، لكنت أسحقهم سحقاً؛ لأنهم أشبه بالقمل، لا يريدون إلا حيث تبدو الحقارة، وينتشر الجرب"[١].

وينكر نيتشه وجود الإله، ويصفه بأنه القديم البالي، وأن فكرة الإله ما ينبغي لأحد أن يتحدث فيها، أو يبعثها من قبرها. ويتهكم على نصوص من التوراة تثبت وحدانيته تعالى. يقول نيتشه على لسان حارسين لحديقة: " قال أحدهما: إن هذا الإله لا يعتني برعاية أبنائه، فالآباء من البشر أشد عناية منه بأبنائهم.

فأجاب الآخر: لقد أدركه الهرم، فهو لا يهتم لهم. وهل لهذا الأب من أولاد؟ من سيثبت هذا إذا هو لم يثبته بنفسه، ولطالما تقت أن أراه آتيا ببرهان عن جد. أهو يأتي بالبرهان، وفي أي زمان أقام شيئا من الأدلة؟ إنه ليستصعب الإثبات، ولكنه يتمسك بأن يؤمن الناس به. أجل إن الإيمان ينقذ هذا الأب، وإذا قلت بالإيمان فإنما أعني إيمانه هو بنفسه، وتلك شيمة من بلغوا من العمر عتياً، أفما نحن شيوخ، وكلنا أشباه "[٢]. والواضح أنه يتهكم على معتقدات النصارى في القول بالأبوة. كما أنه إن كان يقصد بالآب الآب بمعنى المربي، الذي يجود ويفيض بالخير على عباده فلا بأس ، وإن كان يقصد الأب على الحقيقة فهو باطل ومتهافت.

ثم يسترسل نيتشه في حديثه عن الإله، بأنه ما يجب أن يكون إنكار وجوده موضع الشك؛ لأنه لا وجود له. فنفى وجوده ليس مجالاً للشك: " أفما انقضى منذ زمان طويل، عهد

---

١ - زارا ص١٤٣.

٢ - زارا ص١٥٣.

الوقوف عند مثل هذه الشكوك ؟ ومن يحق له يا ترى أن يتقدم إلى هذه الأشياء المظلمة الثاوية، ليبعثها من لحودها؟ لقد انقضى عهد قدماء الألهة، فطوتهم الأحقاب.. فقد ماتت الآلهة، انتحروا انتحاراً وهم بضحكهم يختنقون، انتحروا عندما تلفظ أحدهم بآية الجحود الكبرى قائلا: أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامي[1]. فكأن هذا الإله قد أخذ بغضبه وغيرته في شيخوخته، فذهل هذا الذهول حتى أضحك جميع الآلهة، فتمايلوا على عروشهم هاتفين. أفليس في هذا النهى اعتراف بأن هناك ألوهية لعدة أرباب، وليس هناك رب واحد. من له أذان صاغيتان فليسمع"[2].

وسنعاود الحديث في هذا الموضوع ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الحديث عن المقياس الخلقي لدى نيتشه.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن الإله الذي أعلن نيتشه عن موته كثيراً، هو الإله المسيحي الكنسي بصفة خاصة، يقول نيتشه في كتابه "العلم المرج" : " ألم تسمعوا عن المجنون الذي أشعل مصباحاً في ضوء النهار، وجرى إلى السوق، وراح يصرخ دون توقف: إني أبحث عن الإله المسيحي، إني أبحث عن الإله المسيحي. بينما كان يقف حوله كثيرون من أولئك الذين لا يؤمنون بالإله، فأثار ضحكهم، وسأله أحدهم: هل تاه الإله المسيحي؟ وسأله آخر: هل ضل طريقه مثل الأطفال؟ أم هو مختبئ؟ هل هو خائف منا ؟ هل ذهب في رحلته؟ هل هاجر؟ وهكذا : راحوا يصيحون ويضحكون. ففقز المجنون في وسطهم، وراح يرميهم بنظرات ثاقبة، ثم صاح فيهم :

---

١ – في التورا ة : " أنا الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، ولا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع مثالاً منحوتاً، ولا صورة مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن ؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور" سفر الخروج ١٠/١-٥. الكتاب المقدس . طبعة العيد المئوي سنة ١٩٨٣م.

٢ – زار ا ص ١٥٤.

تسألوني أين ذهب الإله المسيحي؟ سأخبركم. لقد قتلناه. نحن جميعا قد اغتلناه... ألا تسمع شيئاً حتى الآن من الضجيج الذي يشيعه حفار القبور الذين يدفنون الإله ؟ ألا تشم شيئا حتى الآن من العفن الإلهي، فالإله المسيحي أيضا يعفن. لقد مات الإله المسيحي، وسيظل ميتا، وقد قتلناه"[1].

إرادة الحياة :

إذا كان الدين يعني إنكار الحياة، ولا تنال الحياة من خلال الدين، وإذا كان الدين لا يضمن الحياة، فمن يضمنها ويوجدها؟ إن ما يضمنها ويؤمن وجودها من وجهة نظر نيتشه هو "إرادة الحياة، فالإرادة هي القوة في الحياة، التي تحكم عليها بالوجود. ولو كان نيتشه عنده من قوة الإرادة الكثير ـ كما يرى ـ لاستطاع أن يتغلب على الآلهة ، ولأمسك بكل أسباب الحياة والمتع الدنيوية، فالإرادة وحدها هي التي تستطيع تحرير الإنسان وليس الدين.

ولا شك أن في هذا الكلام من التهافت ما لا يخفى، فهو قد ملك ـ كما يحكى عن نفسه وسيأتي هذا كثيراً ـ إرادة قوية، فهل استطاع أن يدفع عن نفسه شئ ؟

وأن انتصار الإنسان على آلهته في اليونان ـ مثلاً ـ كان سببا في قوتهم، فالإنسان يجب أن يفرض إرادته في الحياة، وفي أن يحيا بدلاً من أن يعتمد على إرادة الآلهة في السماح له بأن يحيا، وبهذا فإن الآلهة تصب لعناتهم وغضبهم على من يحاول الحرية، ويعلن حقوقه لدى الآلهة التي تريد منه أن يكون عبداً.

فعندما حاول "بروميثوس" العملاق، أن يخرج من إطار وسيطرة الآلهة ـ كما تقول الأساطير اليونانية ـ ، الذي حاول حمل النار إلى البشر ، عاقبه "الإله زيوس" بتقييده إلى جبل، وظل حبيساً حتى حرره "هيرالكيس"[2].

---

١ – العلم المرح نقلا عن فلسفة نيتشة ص١١١، ١١٢.

٢ – انظر : الموسوعة العربية الميسرة ج١ ص٣٦٢.

وكذلك ما حدث من آدم وحواء، فكان جزاؤهما الطرد من الجنة لأن الله لا يصفح عن الثائر. ولا شك أن هذا الكلام فيه مغالطة ظاهرة.

ويبين نيتشة أن القوة مع عدم الدين خير من الضعف مع الدين"إن الشرف وثني روماني إقطاعي أرستقراطي. أما الضمير فيهودي مسيحي برجوازي ـ الطبقات الوسطى من الناس ـ ديمقراطي، إن بلاغة الأنبياء هي التي حورت الأخلاق، حتى جعلت الطبقات الذليلة الخاضعة هي محور الفضلية، فأصبحت الدنيا والمتاع الجسدي مرادفين للشر، وبات الفقر برهانا على الفضيلة.

وقد بلغ هذا التقدير الأخلاقي منتهاه بتعاليم المسيح، الذي أعلن أن الناس سواسية في أقدارهم وحقوقهم. فتفرعت عن مذهبه هذا الديمقراطية والاشتراكية"[1].

ففكرة الآلهة خرافة، من اختراع البشر، وعلى الإنسان أن يتخلص منه حتى يكون إنساناً: "ليس من عائق للإنسان غير غبائه وخوفه، فالإنسان في لحظة تعسة من حياته، قد اخترع خرافة أسماها الله، وظل منذ ذلك الحين مكبلاً بقصة من خلقه هو. ألا أنه ليس من إله غير الإنسان، لو وافته الشجاعة على أن يعرف قدره، ثم يجاوزه مصعداً، فعلى الإنسان أن يحاول السمو إلى الإنسان"[2].

ويتهكم نيتشه على حظه العسر، وعلى ما قدر عليه، وعلى إلهه الذي أوقفه في هذا الخطب؛ وذلك لأنه أحب امرأة "فلندية" كانت تعجب بأفكاره، كان اسمها "لوفون سالوم" ، كانت على درجة فائقة من الجمال والشباب والحيوية ، طلبها نيتشه للزواج، لكنها رفضت، لأنه بظروفه ـ الصحية ـ لا يناسبها، ولكنه ظن أن سبب رفضها له، أن زواجه منها يعوقها عما رسمته لنفسها، فطلب

١ - قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٣١ ، ٥٣٢.

٢ - المفكرون ص٤١٢.

منها أن يكونا علاقة بغير زواج، ولكنها رفضت أيضاً، مما سبب له صدمة عنيفة، وزاد من ذلك علمه بأنها ارتبطت برجل عادي. هذا الموقف جعله يهزأ من الإله، ومن القدر الذي حُتم عليه فقال في هذا: " إني لم أخلق العالم، ولا لوفون سالوم، ولو أني خلقتهما لكانا خيراً مما هما "[1] وهذا الموقف جعله يقول بفكرة الخير والشر الأخلاقي كما سيتضح فيما بعد إن شاء الله.

المرحلة الثالثة : علمنا مما سبق أن الدين لدى نيتشة مر بمرحلتين. الأولى وهو صغير وقد كان يعد لأن يكون قسيساً. وفي المرحلة الثانية أنكر فيها الدين وأنكر الإله. والمرحلة الثالثة يمكن أن نستنبطها من خلال كلامه في كتابه الأشهر " هكذا تكلم زرادشت" . وفيه إشادة بالإسلام، ونبي الإسلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولا يخفى علينا جميعاً ، أن الغرب في أوربا ، وفي ألمانيا بصفة خاصة، قد عرفوا الكثير عن الإسلام، وعن نبي الإسلام. وقد تُرجم الكثير من الكتب التي تتحدث عنهما. ويوجد الكثير من المسلمين هناك. والكثير من التراث الحضاري والفكري والعلمي الإسلامي كان معروفاً في ألمانيا.

وأغلب الظن أن حديث نيتشه عن الإسلام ، كان بعد ما سمعه عنه. وحكمه عليه كان في مقابل ما شاهده وعاينه من المسيحية، ومن عنت رجال الدين، وتصلبهم، وكهنوتهم المصطنع، الذي يفر منه كل ذي عقل. وليس بالضرورة أن يكون دخل في الإسلام، أو اعتقد حقيته؛ لأنه اتخذ ورسم لنفسه خطاً بعيداً عن الأديان وعن الإله.

يذكر نيتشه في الجزء الرابع من كتابه هذا، وهو من آخر ما كتبه، فقد طبع سنة ١٨٩٢م أي بعد مرضه الأخير بثلاث سنوات، يذكر نصاً وسأجتزئ فقرات مطولة منه،

١ - المفكرون ص٤١٣.

ولا أعلق عليه، وأترك الكلمات تعبر عن نفسها أفضل تعبير.

يقول تحت عنوان : " بين غادتين في الصحراء" : " وعندئذ صاح المسافر الذي دعا نفسه خيال زارا قائلاً : لا تذهب. ابق بيننا، لئلا تكرَّ علينا أحزاننا بعد أن تولت عنا. فقد أغدق علينا الساحر شر ما عنده، حتى إن رئيس الأحبار الوافر التقوى، بدأ يسكب الدمع من عينيه، ويتوه في بحر الشجون، إبق هنا يا زارا. لا تذهب، فهنا ويلات خفية، تريد أن تتكلم، هنا ظلمات وغيوم، وهواء كثيف يضغط على الصدور... ليس لسواك أن ينفخ حولنا هواء القوة والنقاء. فإنني ما نشقت في العالم ما يهبُّ عليَّ في غارك من لفحات صافيات، وقد جبت الأقطار، ومررت بمعاطس على أجواء وأجواء،فما راقني شميم إلا حيث تقيم.

لأصدقنَّ القول: لقد راقني مرة مثل هذا الشميم من قبل، عندما أنشدت ما أوحى إلى بين غادتين في الصحراء، حيث ملأت صدري من نسمات الشرق المشبعة عطراً في صفائها، وأنا بعيد عن أوربا الهرمة تكون جوها الغيوم، وترهقها رطوبتها وأشجانها.

ذلك زمان عشقت فيه غادتي الشرق في صحرائه، فهنالك سماء غير هذه السماء، لا تتلبد فيها الغيوم،ولا تعتكر على أديمها الأفكار.

إنكم لأعجز من أن تتصورا سحر هاتين الغادتين، وهما معرضتان عن الرقص، جالستان، وفي سكونها أجمل حركات الفنون، وقد كمن الفكر في صدرها، فكأنهما أسرار وألغاز، تتماوج أشكالاً وألواناً. فلا يعروها قتام، وهكذا الألغاز المستسلمة لمن يحل مكنونها ...

وبدأ ينشد بصوت يزأر زئيراً.

إن الصحراء تتسع وتمتد، فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء.

يا للمهابة.

يا للبداية تليق بمهابة صحراء إفريقيا.

يليق بأسد، أو بنذير يهب بالناس إلى مكارم الأخلاق.

إنها لروعة لم تسط عليكما يا صديقتي، عندما أتيح لي أنا ابن أوربا، أن أجلس عند أقدامكما تحت ظلال النخيل. حيًّا على الصلاة !.

يا للعجب!

أراني ماثلاً أمام الصحراء، ولكنني عنها جد بعيد، وما ابتلعتني الواحات الصغيرة، بل انفرجت أمامي كأطيب الثغور نكهة، فارتميت فيها. وها أنذا عند أقدامكما يا صديقتيَّ العزيزتين،حيا على الصلاة!

إنني أمجد تلك الواحة، إذا كانت عززت من نزل فيها.

وأنتما تدركان ما في رموزي من الحكمة.

طوبى لأشحائها إذا كانت كهذه الواحة، ولكنني أشك في ذلك، فأنا قادم من أوربا، أشد العرائس جحودا، أصلحها الله ، إنه السميع المجيب.

ها أنذا جالس في ظلال أصغر الواحات، فما أشبهني بتمرة سمراء مذهبة، تتشوق إلى صدر كاعب يفترُّ عن أسنان محددة ناصعة كالثلج. وهل تحلم قلوب التمر الملتهبة إلا بمثل هذه الثغو؟حيًّا على الصلاة!...

إنني أنشق نسمات الجنان، والهواء حولي مفضض بأشعة ما أرسل القمر مثلها في الأجواء، فهل أرسلها صدفة، أم عن قصد كما قال الشعراء الأقدمون ؟

أما أنا فأشك فيما قيل ؛ لأنني آتٍ من أوربا، وهي أشد العرائس جحوداً. أصلحها الله إنه السميع المجيب.

إنني أنشق الهواء ملء معاطسي، وليس لي أمسٌ ولا غدٌ ، فأجلس معلقاً أبصاري على النخلة، وهي تتأود وتتثنى وتهز ردخها، فكأنها راقصة دارت طويلاً على رجل واحدة، حتى لا يسع من يراها إلا أن يقلدها، ولعلها نسيت أن لها رجلاً ثانية ....

ولكن لابد في هذه الأرجاء من قوة تشدد القلوب، لابد من آيات تفوح عطراً وتتسامى جلالاً .

ارتفع يا مظهر الجلال، ولتهب مرة أخرى نسمة الفضيلة.

ويا ليت أسد الفضائل يزأر أيضاً أمام غادات الصحراء. فزئير الفضيلة يا بنات الصحراء أقوى ما ينبه أوربا، ويحفز بها إلى النهوض.

ها أنذا ابن أوربا، ولا يسعني إلا الخشوع والانتباه لدويّ هذه الآيات البينات.

وقد توكلت على الله.

إن الصحراء تتسع وتمتد، فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء"[1].

ويجب الإشارة هنا فقط إلى أن نيتشه يرى أن في الإسلام ونبي الإسلام، خلاص لأوربا من المستنقع الذي غرقت فيه، والذي يصفها بالهرمة، في مقابلة الجو الذي ظهر فيه الإسلام بجلاله ونقائه.

و" فيلكس فارس" ـــ مترجم الكتاب ـ أشار إلى أن المراد " بأسد الفضائل" نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد استشار متخصصاً في فلسفة نيتشه وهو د" روبرت رينجر الأستاذ بجامعة فينا " فأيده في ذلك[2].

ولا شك أن في النص إشارات واضحة لفضائل الإسلام، ونبي الإسلام. وذكر إفريقيا كلها لأنها من أول البقاع التي دخلها الإسلام، كما أنها كانت المعبر لوصول الإسلام إلى أوربا.

وذكر نيتشه أنه تنسم مثل هذا العبير من قبل، يدل على أن كلامه هذا، ليس في مرحلة كتابة زارا بل قبل ذلك، ولعل ذلك كان في الفترة التي أشرنا إليها" وهي بين المرحلة الأولى والثانية.

١ - زارا ص ٢٥٤-٢٥٧.

٢ - السابق ص ث.

المقياس الخلقي عند نيتشه

موقف نيتشه مع المرأة التي رفضته، والذي سبق أن أشرنا إليه، وما آل إليه حال نيتشه شكل تفكيره الفلسفي، واتجاهه الديني تشكيلاً آخر.

فقد بدأ يبحث في المجال الأخلاقي، وخاصة فكرة الخير والشر، ومن هو الخيِّر والشرير على مر التاريخ . وأدى به تفكيره الشاذ، إلى أن الخير والشر والقوانين الأخلاقية عموماً، ليست من الله؛ لأنه لا إله، ولا قانون خلقي عام سام. فهذه القوانين والآراء حول الخير والشر، انتجتها وانضجتها العقول البشرية خلال تطورها على مر التاريخ.

ويجب شن حرب شعواء على كل القيم التي اتخذها الناس مقياساً للخير والشر. يقول نيتشه: " إنني أحلم بقيام جماعة من الرجال تامين مطلقين، أشداء، لا يتهاونون ولا يتساهلون، يطلقون على أنفسهم اسم الهدامين، فيخضعون كل شئ لنقدهم، ويضحون بأنفسهم من أجل الحقيقة، يجب أن يظهر كل ما هو شر وباطل علناً في وضح النهار. أنا لا أريد أن نبني قبل الأوان، بل لسنا نعرف إن كان قدر لنا أن نبني يوماً ما، وأن ليس الأحسن ألا نبني مطلقاً. وهناك متشامخون كسالى ومستسلمون، ولكنا نحن لن نكون أبداً من هؤلاء"[1].

ويذكر نيتشه أنه أولاً كان لا مدلول لكلمة خير وشر، بمعناه الخلقي الآن، فالخير والخيِّر كانا يدلان على ميزة ومكانة اجتماعية وسياسة لصاحبها. وعلى هذا فخيار الناس هم طبقة الحكام والأقوياء والمحاربين والأشراف في كل المجتمعات.

فالخيِّر الذي هو الشريف القوي، فكانت مكانته تعتمد أولاً وفقط على قوته، وعلى هذا فقد فرض الأقوياء منطقهم ـ خلقهم وقيمهم ـ على

١ - بدوي ص١٥٧.

المجتمع، وبالتالي وضعوا صفات ومعايير وحدود الأخلاق بما يتفق مع خصائصهم وميولهم ورغباتهم.

وفي المقابل، فإن الشر أو الشريرين في هذه المجتمعات، ليسوا هم من يأتون بالأفعال القبيحة المشينة المستهجنة، ولكنهم هم الضعفاء جسمياً، ولهذا باءوا بأحط المراكز والمناصب. فالرجل الخير هو الذي يفرض رأيه، والشرير هو الضعيف الذي لا رأى له، ويسير حيث سار الضعفاء مثله. هذا هو الأساس في معنى الخير والشر، اللذان هما مرادفان للقوة والضعف."[١].

وعلى الرغم من عدم اتحاد مفهوم للخير والشر لدى الناس، إلا أنهما أيضاً يختلفان من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان، فهما نسبيان في حقيقتهما، وفي تحقيقهما، على الرغم من قوتهما. يقول نيتشه: " لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان، وكثيراً من الشعوب، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر، وعرف أن لا قوة في العالم تفوق قوتهما. تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أن يُخضع النظم والسنن لتقديره، وأن كل شعب يرى من واجبه إذا أراد الحياة، أن يجئ بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب. وهكذا كان ما يراه أحدهما خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً . فكم من عمل اتشح بالعيب في بلد، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر "[٢] وذلك لأنه لا دلالة حقيقية للخير والشر، فهما إشارات ورموز لا يطلبهما إلا المجانين" ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر، سوى رموز، فهي تشير إلى الأمور، ولا تعبر عنها، ولا يطلب المعرفة فيها ومنها إلا المجانين "[٣].

وبما أن الخير والشر لا ثبات لهما، فهما وسيلة للوصول إلى

١ - زارا ص١٧٠ولاشك أن هذا مخالف للواقع .

٢ - السابق ص٤٧.

٣ - السابق ص٦٢.

التفوق والاستعلاء " ليس هنالك من خير دائم وشر دائم؛ لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاستعلاء "[١].

وكذلك لا ثبات في مقياس الحسن والقبح، ومن الحسن أن يخالف الإنسان الأمر المتعارف عليه " والحق أنني أكره أيضاً من يرون كل شئ حسناً ، ويرون هذا العالم خير العوالم. إنْ هؤلاء إلا القانعون، يرتاحون لكل شئ، ويتذوقون كل شئ. وما بهذا يستدل على الذوق السليم. أما أنا فأجِل الغم الحساس المتصعب، الذي يعرف أن يقول أنا ، وأريد، ولا أريد ... أحب من الألوان الأصفر القاتم، والأحمر الفاقع؛ لأنهما يدخلان لون الدم على جميع الألوان... إنني أحب الدماء، وما يتفق ذوقي وأذواق من يعشقون الجثث المحنطة من جهة ومن يعشقون الأشباح من جهة أخرى؛ لأن الفئتين معاديتان لكل ما هو لحم ودم "[٢].

ومن يدعوهم الناس أشقياء، هم في الحقيقة أخيار؛ لأنهم أقوياء: " إن من أدعوهم أيضاً أشقياء في الحياة، هم الألي، لا خيار لهم إلا بين حالتين، فإذا لم يكونوا حيوانات مفترسة، كانوا مذللين لها ... وأنا أدعو أشقياء أيضاً من يكرهون على الانتظار أبداً، فما أحبذ حياة الجباة والتجار والملوك، وكل من يقف حارساً لحانوت أو لقطر من الأقطار "[٣].

ولكن ما حدث بعد ذلك، أن انقلبت هذه الموازين على مر التاريخ. فبدل من أن يكون الخير هو القوة والخيِّر هو القوي، والشر هو الضعف والشرير هو الضعيف، حدث أن جاء طبقة من الناس، وصعدوا إلى أعلى، ووصلوا إلى القمة، إلى مركز القيادة. وصلوا إليها لا لقوتهم لأنهم لم يكونوا أقوياء، ولا محاربين، ولكنهم كانوا قساوسة، أي من أضعف الرجال.

١ - السابق ص٩٨.

٢ - زارا ص١٦٤، ١٦٥.

٣ - السابق ص١٦٥.

وبالتالي حاولوا أن يغيروا معنى الأخلاق، وخاصة حقيقة الخير والشر. وبما أنهم ضعاف البنية، فقد اعتمدوا على قوتهم العقلية.

ومن خلال صراعهم مع طبقة الأقوياء، الطبقة الحاكمة قبل ذلك، حاولوا أن يغيروا مفاهيم وحقائق الخير والشر.

فإذا كانت القوة هي قوة البدن، فقد استبدلوا ذلك بما اخترعوه تعويضاً عن نقصهم ، وسموه: " قوة الروح" أو: " فضائل الروح" . ومن أجل سيطرة هذا الخلق الدخيل، وضعوا نظاماً أخلاقيا جديداً، يستر ويغطي ضعفهم وعيوبهم، فلما عجزوا عن أن يسيطروا ويقهروا غيرهم بقوة السيف، حكموا بالتقوى والصلاح، وأعلنوا شعارات جوفاء، تناسب طبيعتهم، كإعلانهم : "حقوق الذليل" و "جلال الجبان" و"مجد الضعيف" . كل هذه الشعارات لا لشئ، إلا ليميتوا ويكبتوا الغرائز، والقوة الطبيعية عند الأقوياء.

واختراعهم هذه الشعارات وهذه السياسة، حتى يستمر حكمهم الضعيف العاجز، وأصبح العجز والضعف ممجداً، ولذلك أعلنوا: " أن التعساء وحدهم هم الأخيار، وهل من خير غير الفقير والضعيف والمسكين؟ . وهل من تقي مبارك غير المعذب والمعوز والمريض والطريد؟ . لهم وحدهم الخلاص. أما أنتم أيها الأشراف، يا من بيدكم السلطة ، فستظلون أبد الدهر أشراراً، مفزعين، جشعين، مغتصبين، لا تشبعون. ليس لكم من إله، وحرمت عليكم البركة، إلى الأبد كتبت عليكم اللعنة والعذاب "[1].

بهذا المنطق ــ كما يرى نيتشه ، انتشرت المسيحية ، وبانتشارها انتصرت أخلاق الرجل الوضيع "الضعيف" فالمسيحية ما هي إلا خدعة، وهي ملاذ الرقيق، هذه الخدعة قلبت الأمور، فجعلت من القوة والقوي شيطاناً ، ومن الضعف والضعيف إلهاً .

---

١ - المفكرون ص٤١٤، ٤١٥.

حرب نيتشه على اليهودية والمسيحية من خلال نظريته الأخلاقية

إذا كان هناك أخلاق القوة وأخلاق الضعف، أو مقياس الخير والشر، أو أخلاق السادة وأخلاق العبيد ــ كما سيتضح ــ فمن الذين يمثلون أخلاق العبيد؟ ومن الذين غذوا هذه الأخلاق؟

يبين نيتشه أن الذين أوجدوا وغذوا ونموا أخلاق العبيد، هم اليهود والنصارى بصفة خاصة ؛ لأنها السبب الأصيل في سيادة أخلاق الضعف والعجز والاستكانة " فكان من ذلك ما أصاب الإنسانية من شر أوقفها طويلاً عن التقدم"[1].

فاليهود هم أول من قاموا بثورة العبيد والعامة في الأخلاق، فهم قلبوا وغيروا قيم السادة، وأصبح منطقهم : خير = وضيع = ضعيف = مشوه = يائس = مملوء بالخطايا . بدلاً من أخلاق السادة، أخلاق القوة التي تقول: خير = نبيل = قوي = جميل = سعيد = محبوب من الله.

واليهود بما لاقوه من ذل وهوان وتشتت وتشرذم، هم الذين ثاروا على قيم سادتهم الرومان، الذين كانوا أقوياء سادة نبلاء، ثم جاءت النصرانية التي كانت صورة من صور اليهودية ، أخذت أخلاقها، وكان رؤساؤها من اليهود، مثل : القديس بولس، والقديس بطرس. يقول نيتشه : " إن المسيح قد مات قبل أوانه، ولو أنه بلغ العمر الذي بلغت، لكان جحد تعاليمه "[2] ويكفي دلالة على عدائه للمسيحية أنه لقب نفسه بـ " عدو المسيح" وصنف كتاباً يحمل هذا العنوان.

وكان يقول لأتباعه : " أي أخوتي : حطموا هذه الألواح القديمة ولا تتردوا "[3].

---

١ - تاريخ الأخلاق د. محمود يوسف موسى ص٢٨٤. الطبعة الثانية . سنة ١٣٦٢هـ ١٩٤٣م. مطبعة أمين عبد الرحمن .

٢ - زارا ص٦٠.

٣ - السابق ص٢٨٤.

ويبين نيتشه أن المسيحية هذه ما هي إلا اختراع باطل: وسبب القول بالمسيحية، أنه قبل ظهورها، في مراحل الإنسانية الأولى، كان الأقوياء يباشرون سلطانهم على الضعفاء ، فالمحاربون والأقوياء يفعلون ما يريدون بالضعفاء، وهم لا حول لهم ولا قوة. وأنزل الأقوياء العقاب الشديد بالضعفاء، دون نظر إلى قانون أعلى. فلما عاش الناس في مجتمعات يحمي نفسه، وحدث بينهم تكافل، أصبح الإنسان في مأزق؛ لأن الطبيعة هيأته لحياة الوحشية، حياة الحرب والجور والظلم وطلب الفرائس. وغريزة الإنسان طالبت بحقها في إشباع ما نمت عليه، فلما تعزر هذا، أشبعها الإنسان بطرق ملتوية، بأن تحولت في داخله. " فالكراهة والقسوة ولذة الاضطهاد، كل هذه الانفعالات قد خلق الإنسان الضال منها أسلحة ضده، فالإنسان انقلب على نفسه يضطهدها ويؤذيها، فبعد أن سد الإنسان المسلك الطبيعي لإرادته في إيذاء الغير، انقلب إلى إيذاء نفسه فأصبح شهيدا. والأداة التي عذب بها نفسه، تصوره أنه مدين لشئ إله أسمى منه، فاخترع الجنة والنار، ووجد هذا المخلوق المعذب، وكما يقول نيتشه: " أعظم تعبير عن تحقير ذاته في ذلك الاختراع العبقري المسيحية، أي تناقض هذا !! إله يحطم نفسه ليخلص البشر من الدين ؟ أيحمل الدائن وزر المدين هياماً بهذا المدين؟ من الذي يصدق هذا لطالما كان العالم دار جنون "[1] وكان يرى أن كثرة المسيحيين في هذه الدنيا وقلة المتوحشين، هذا عيب في هذه الدنيا[2].

كما أن من أشد الأسباب التي جعلت نيتشه يرفض المسيحية سلوك رجالها يقول: " انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة، وقد سموها كنائس ، وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها، وهل

١ - المفكرون ص٤١٧، ٤١٨.

٢ - راجع: السابق ص٤١٩.

للروح أن ترتفع إلى مستواها، تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة، وفي هذا الجو الكثيف، حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة، وتأمرهم بصعود درجات الهيكل، زحفاً على الركب.

إني لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة، من أن أرى هذه العيون، أطبقت أجفانها ، معلنة خشوعها واستغراقها، لقد أراد هؤلاء الكهنة، أن يعيشوا كأشلاء الموتى، فسربلوا جثثهم بالسواد، فإذا ألقوا مواعظهم، انتشرت منها رائحة اللحود. إن من يجاور هؤلاء الناس، فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء، حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين "[1].

ويبين أن حال الناس مع المسيحية ، كحال من ركب سفينة، وقد ثارت بهم الموج، فلجأوا إلى جزيرة هي ظهر تنين نائم، خطر، وهل هناك خطر أشد من الوصايا والكلمات الوهمية، وقد انتبه التنين وهو يريد أن يلتهم كل ما على ظهره[2].

ويقول : " لقد أخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة. أيها الرجال الأتقياء، فأنتم ديدان قبيحة، تتشح برداء الأرباب "[3].

والشر والخطر الحقيقيين الذين يهددان البشرية، لا يكمن إلا في رجال الدين المسيحي، ويسميهم تهكماً "أهل الصلاح والعدل". والشر الذي يلحقونه بالناس، لا يوازيه أو يدانيه شر أهل الشر، كما أنهم يكرهون أهل الإبداع والرأى الحر. يقول نيتشه: " أين يكمن الخطر الأعظم المهدد لمستقبل الإنسانية يا إخواتي؟ إنني أراه كامناً في نفوس أهل الصلاح والعدل، وهم القائلون في نفوسهم : إننا نعرف ما هو صلاح وعدل، وهو كائن فينا، فويل لمن يريدون أن يوجهوا أبحاثهم إليه. إن ما يرتكبه الأشرار من المآتي، لا يوازي بضره ما يرتكبه الأخيار، فإن وطأتهم لأشد على

١ - زارا ص٧٧.

٢ - راجع السابق .

٣ - زارا ص١٠٥.

العالم من وطأة المفترين عليه ... أي إنسان يصب عليه هؤلاء الناس أشد كرههم؟ إنهم لا يكرهون أحداً كرههم للمبدع؛ لأنه في نظرهم المجرم الهدام لتحطيمه ألواح الوصايا القديمة، ذلك لأن أهل الصلاح عاجزون عن الإبداع، وما هم إلا بداية النهاية، فلا بدع إذا صلبوا من يحفر وصايا جديدة على ألواح جديدة، وإذا ضحوا المستقبل لأنفسهم، والمستقبل للعالمين أجمعين. هل كان أهل الصلاح في كل حقبة من حقب الزمان إلا بداية النهاية "[1].

وإذا كان أهل الصلاح ــ رجال الدين المسيحي ــ هم الخطر الأكبر للإنسانية، فيجب القضاء عليهم للوصول إلى الإنسان المتفوق : " أفهمتم يا أخوتي هذه الكلمة، وما قلته لكم أولاً عن الإنسان الأخير؟ أفما اتضح لكم أن الخطر الأكبر المهدد مستقبل الإنسانية، إنما هو في مبادئ أهل الصلاح والعدل. هيا حطموا الصالحين والعادلين "[2].

١ – السابق ص١٨١، ١٨٢.

٢ – السابق نفس الصفحة .

تحديد المقياس الخلقي

نقول أولاً: من أهم الموضوعات، بل من أهمها على الإطلاق التي بحثها نيتشه كان في الميدان الأخلاقي فكما يقول أحد الباحثين: " نيتشه مفكر أخلاقي قبل أن يكون فيلسوفاً، ذا آراء في المعرفة أو في طبيعة العالم، وقبل أن يكون ناقداً اجتماعياً، أو فنياً، أو باحثاً فيولوجياً ــ علم أهل اللغة ــ . وفي ميدان الأخلاق أتى نيتشه بأكثر آرائه جرأة وأصالة، وفيه تعرض أيضاً لأقوى الانتقادات والحملات"[3].

وعلى الرغم من أهمية الجانب الخلقي عند نيتشه، إلا أننا نجده تجاه ذلك، له موقفان متعارضان.

فهو من ناحية يجعل للجانب الخلقي أهمية كبرى، ويرجع الكثير من الظواهر إليه، كالمعرفة مثلاً، فأصل المعرفة عنده أخلاقي.

ومن ناحية أخرى يوجه أعنف الانتقادات لها، ربما لم تواجهه بمثل هذه القوة في طوال تاريخها، وكأن

٣ – زكريا ص٨٢.

نيتشه يريد أخلاقاً يفرضها ويرتضيها هو، لا الأخلاق المتوارثة والمتعارف عليها منذ أقدم العصور.

ورفض نيتشه للأخلاق، ليس معناه أنه يتحلل منها، مع إيمانه بها؛ لأن في هذا اعتراف بها، ولكن رفضه للأخلاق بمعنى أنه لا يعترف أصلاً بالقيم الأخلاقية السائدة لدى الناس. والمتوارثة على مر الأجيال.

فالقيم نفسها لديه وضعها موضع الشك، وفحصها ورفضها. يقول نيتشه: "فلكي يتسنى لنا أن نتأمل أخلاقنا الأوربية من بعيد، ونقارنها بنظم أوربية أخرى سابقة أو تالية، علينا أن نفعل ما يفعله السائح، الذي يريد أن يعرف مدى ارتفاع أبراج مدينة، فهو عندئذ يغادر المدينة. فالتفكير في الأحكام الأخلاقية المتميزة، إن لم يشأ أن يكون حكماً متميزاً ، يصدر عن أحكام متميزة، هذا التفكير يقتضي اتخاذ موقف خارج عن الأخلاق بمعزل عن الخير والشر"[1].

١ – العلم المرح نقلا عن : زكريا ص٨٤.

والأخلاق المتعارف عليها يجب القضاء عليها " نحن اللا أخلاقيون، نسئ إلى الفضيلة تماماً، مثلما يسئ الفوضويون إلى الأمراء فقط؛ لأن الأمراء ما زالوا يجلسون على عروشهم آمنين، رغم محاولات الفوضويين القضاء عليهم إن الأخلاق يجب القضاء عليها "[2].

بعد ذلك نقول: يحدد نيتشه المقياس الخلقي للحكم على الأشياء بالخير والشر ، بأنه يجب أن يخضع للعقل الحر ــ بمقياسه هو ــ الغير مقيد بأي معنى خلقي. وللعقل الحر مطلق الحق في أن يخلق من الأفكار الجديدة ما يستطيع. فلا أخلاق مستمدة من الله كما يذهب رجال الدين، ولا يوجد عالم أعلى من العالم الأرضي كعالم المثل كما يرى أفلاطون؛لأنه لا توجد ثنائية في الكون،ولا أخلاق راجعة إلى يسمى بالضمير.

فالضمير عنده ليس هو صوت الإله في الإنسان؛ لأنه ينكر الإله ــ

٢ – فلسفة نيتشة ص١٣١.

كما نعلم ــ فالضمير خرافة، ولكن كيف نشأت فكرة الضمير أنها نشأت من القوة . يقول نيتشه: " إن الرجل الحر ، الذي يمتلك إرادة لا تلين، يمتلك أيضاً معياراً للقيمة. فينظر إلى الآخرين من خلال نفسه، ليحترمهم أو يحتقرهم، وهو ملتزم باحترام أنداده الأقوياء الموثوق بهم، أي أولئك الذين يعطون وعوداً، مثل السادة الذين يضنون بثقتهم، والذين تكون ثقتهم علامة مميزة لهم، والذين يعطون كلمتهم كشئ موثوق به؛ لأنهم يعرفون أنهم أقوياء بالدرجة التي تكفي للحفاظ عليها في وجه الأحداث، وحتى في وجه القدر، والإدراك الفخور لهذا الامتياز غير العادي، وهو الإحساس بالمسئولية والوعي بهذه الحرية النادرة، وهذه القوة التي يمارسها الإنسان على نفسه وعلى القدر، تغلغلت في أعماقه ، لتصبح غريزة مسيطرة. فماذا يسمي هذه الغريزة المسيطرة إذا تصورنا أنه يشعر بحاجة إلى أن يسميها. والإجابة بغير شك هي: أن هذا الرجل السيد يسمي هذه الغريزة باسم الضمير"[1].

إذاً القيم جميعاً تصدر عن العقل، ولكن العقل المجرد، وهذا ما رآه نيتشه والمراد بالعقل المجرد هو الذي ينفصل عن واقعه التاريخي، وما وصل إليه وأصبح مسلماً به لدى الناس.

فالعقل ليس قسمة بين الناس جميعاً ــ كما يرى الفلاسفة المعتد بهم ــ فالعقل الخلقي كما يزعم قد أنتج الكثير من الأخطاء . ومن هذه الأخطاء التي توصل إليها العقل، تبين بعد ذلك أنها نافعة ، وثبت نفعها باكتشاف بعض الناس لها. ومنها ما تبين ضرره . يقول نيتشه في هذا: " لم يتولد عن العقل خلال الأزمان الهائلة الماضية، سوى الأخطاء. ومن هذه الأخطاء ما ثبت نفعه وقدرته على حفظ النوع؛ إذا استطاع من اهتدى إليه وتلقاه بالميراث، أن يحرز في نضاله من أجل ذاته، ومن أجل ذريته، مزيداً

١ - فلسفة نيتشة ص١٦١.

من النجاح، ومن قبيل هذه المعتقدات الباطلة الاعتقاد بأن ثمة أشياء ثابتة، وبأن ثمة أشياء متماثلة، وبأن ثمة أشياء وجواهر وأجساماً، وبأن الشئ يكون على النحو الذي يتبدى عليه، وبأن لنا إرادة حرة، وبأن ما هو خير بالنسبة إلى، هو خير في ذاته ولذاته. ولم يظهر من ينكر هذه المعتقدات أو يشك فيها، إلا في وقت متأخر جداً، بوصفها أضعف صور المعرفة، وأقلها أثراً، وعندئذ وضح للمرء أنه لا يستطيع أن يحياها؛ إذ أن الكائن العضوي فينا، قد تلائم مع ضدها. وكل الوظائف العليا مورست من خلال هذه الأخطاء. فقوة المعرفة لا تكون في مدى حقيقتها، ولكن في قدمها"[1].

وهذه الآراء في تحديد المقياس الخلقي قد اتفقت على أن هناك شيئاً اسمه "الخير في ذاته " أو " الحق في ذاته " أو " الجمال في ذاته " والناس يقولون يجب علينا أن نفعل الخير لأنه الخير، ونقدس الحق لأنه الحق، ونتبع الجمال لأنه الجمال. ونيتشه يرفض هذا المنطق ويقول الناس يقولون هذا بدل من أن يقولوا : هذا يتفق مع طبيعتي، فأنا أفعله، وهذا ما يصلح حياتي وينفعني ويؤدي إلى النجاح، فأنا أعتقده. وهذا يتلاءم وذوقي، ويزيد من حياتي الوجدانية، فأنا أمتع نفسي متعة فنية به"[2].

ونيتشه يرد على الآراء السابقة في تحديد المقياس الخلقي، ويقول لأصحابها: إنكم تخدعون أنفسكم. وإذا أردنا الوصول إلى المصادر الحقيقية للقيم، فلنتبع منهجاً نسير عليه في البحث وهذا المنهج يعتمد على خطوات ثلاث:

الأولى: أن نصنف الأحكام الأخلاقية التي صدرت في الماضي عند مختلف الشعوب، ومن هذا التصنيف يتوفر لدينا تاريخ عام للأخلاق.

١ - العلم المرح : فقرة ١١٠. نقلا عن زكريا ص١٦٥، ١٦٦.

٢ - راجع : بدوي ص١٦٠، ١٦١.

الثانية: علينا أن نفسر الوقائع الأخلاقية،ونعرف ما تدل عليه، فنحدد أي نوع من الناس كانت عندهم هذه الأخلاق، وما الصلة بين طبائعهم وأحوالهم النفسية وبين هذه القيم الأخلاقية التي اتخذوها. ومن هنا نستطيع أن نستخرج الصنوف المختلفة للأخلاق، فنعرف مثلاً أن هذا الصنف من الأخلاق، يمتاز بهذه أو تلك من الصفات، وأنه يوجد عند هذا النوع أو ذاك من الناس، وأنه تعبير عن طبائعهم وغرائزهم الأصلية.

الثالثة : الحكم على كل صنف من هذه الأصناف، فنعلم حينئذ أي الأصناف أقدر على البقاء في الحياة،والارتفاع بها، والسمو بطبيعتها "[1].

وبتطبيق هذه الخطوات الثلاث، فإن نيتشه يبين أن من سبقوه، قد قاموا بتحقيق الخطوة الأولى فقط، ولم يتعدوها إلى غيرها، مع ملاحظات له عليهم فيها.

وتطبيق وتحقيق الخطوتين الثانية والثالثة، فإن نيتشه في دراسته لتفسير وقائع التاريخ، والحكم على الأصناف المختلفة للأخلاق، قد رأى أنواع عدة من الأخلاق ، ولكل نوع منها طابع يميزه عن غيره. وأن اختلاف هذه الطبائع، نتج عن كون مصادر الأخلاق عديدة، وأن المعايير والقيم الخلقية يخلقها أناس مختلفون، وأن اختلاف الأخلاق عند الناس ، يدل على أن مجموعة من الأحكام الخلقية لا يمكن إرجاعها إلى النوع الإنساني في ذاته، وإنما إرجاعها يكون بسبب سيادة شعب على شعب ترجع إلى وجود شعوب وأجناس الخ. شعوب تريد أن تؤكد ذاتها، بإزاء شعوب أخرى، وطبقات تريد أن تجعل بينها وبين الطبقات الأدنى منها حداً فاصلاً "[2].

---

١ - بدوي ص١٦١، ١٦٢.

٢ - بدوي ص١٦٣.

فالأخلاق وخاصة خلق الخير والشر ـ كما سبق ـ هما من نتاج الشعوب وتجاربهما وابتداعهما، لم يرسل بهما وحي من السماء، ولاهما موجودان في فطرة الإنسان " لقد أقام الناس الخير والشر، فابتدعوهما لأنفسهم، وما اكتشفوها، وما أنزلا عليهم بهاتف من السماء"[1].

ولا أدل على ذلك من أن في التراث الشعبي للأمم، كالأمثال مثلاً، ما يدل على أن الخير والشر من نتاج الشعوب، وتتعدد النظرة بتعدد حال الشعوب. ففي ألمانيا مثل يقول: " قل الحق وكن ماهراً في تفويق سهامك من قوسك" وفي هذا المثل من المصاعب قدر ما فيه من الأمجاد. وعند شعوب أخرى سادت مثل هذا المثل: " كن أمينا وابذل للأمانة دمك وشرفك، حتى ولو كان جهادك في سبيل ما يضير وما يورد المهالك" . وبهذا المثل عمل شعب، وتغلب على ذاته، وأصبح عظيماً تنقله الأماني الجسام[2].

وبين نيتشه أن الخير إنما ينشأ عن ضمائر المجموع بسيادة السيد وامتثال المسود، أما الشر فإنما يظهر من إعلان الفرد ذاته " لقد أقامت الشعوب لنفسها قِدماً شريعة خيرها. وما نشأت هذه الشريعة، إلا باتفاق المحبة، التي طمحت إلى السيادة، والمحبة التي طمحت بالامتثال. إن هوى المجموع أقدم من أهواء الفرد، وإذا كان خير الضمائر ما يمكن في المجموع، فإن شرها ما يتجلى في الفرد المطن شخصيته... ما خلق الخير والشر في كل عصر إلا المتهوسون المبدعون، وما اضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء "[3].

---

١ - زارا ص٤٨.

٢ - راجع : السابق

٣ - زارا ص٤٨، ٤٩.

وإذا كانت الأخلاق ــ كما سبق ــ ليس مرجعها إلى الله ، ولا إلى المثل، ولا إلى الضمير، ولا إلى العقل العام، بل مرجعها إلى الطبيعة الإنسانية وما فيها من غرائز. فالأخلاق ليست ثابتة ، بل هي نسبية من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر . يقول نيتشه : " وما دام الإنسان هو الذي قدر تلك القيم ، ولم يلهمها فيجب أن تكون مختلفة، لوجود فروق بين الناس ، تستدعي أن يكون العمل الواحد خيراً بالنسبة لهذا ، وشراً بالنسبة لذاك. يجب أن نفهم أن هذا الذي هو عدل لهذا ، قد لا يكون عدلاً لآخر، وأن المطالبة بأخلاق واحدة للجميع، هو خسارة محققة للرجل القوي الممتاز. وأنه بالإجمال كما يوجد فرق في المرتبة بين إنسان وإنسان، يجب أن يوجد فرق بين أخلاق وأخلاق "[1].

أخلاق السادة وأخلاق العبيد

في المجال الخلقي يجب التفرقة بين أمرين : الفعل الأخلاقي، والحكم الأخلاقي. فالفعل الأخلاقي ثابت . أما الحكم الأخلاقي على الأفعال غير ثابت، بل هو مختلف ومتغير باختلاف وتغير الناس.

وإذا كان هناك فرق بين الفعل الخلقي والحكم الخلقي فإن نيتشه بدراسته الأخلاقية يبين أن كل الأحكام الأخلاقية التي أصدرتها الإنسانية، إنما صدرت عن نوعين من الأخلاق. الأخلاق التي صدرت عن الممتازين من الإنسانية، والأخلاق التي كان مصدرها رعاع الناس والطبقة الدنيا والمنحطة منها. وهذا ما أطلق عليها أخلاق السادة، وأخلاق العبيد.

وبين نيتشه أن حكمه هذا مبني على تصفحه للتاريخ ــ على حد زعمه يقول: "خلال جولتي بين عديد من النظم الأخلاقية، العميقة منها والسطحية، التي سادت الأرض حتى اليوم، ولا تزال تسود اليوم اهتديت

١ - تاريخ الأخلاق ص ٢٨٢.

إلى سمات معنية، تتردد سوياً بانتظام، ويرتبط بعضها ببعض، إلى أن تبدي لي في نهاية الأمر نوعان أساسيان، وظهر هذا التقابل الرئيسي ، فشمت أخلاق للسادة، وأخلاق للعبيد. وإني لأذهب إلى أنه في كل الحضارات العليا المختلطة، تظهر محاولات للتوفيق بين هذين النوعين من الأخلاق. وأكثر من ذلك ظهوراً تداخلها والخلط بينهما، وربما ارتباطاً أوثق الارتباط في الشخص الواحد، وفي النفس الواحدة. فالتميز بين القيم الأخلاقية، إما أن ينشأ عن نوع من السادة، الذين يجدون لذة في التميز عن المسودين، أو تنشأ عن المسودين عن العبيد والتابعين من مختلف الأنواع "[1].

وتصفحه للتاريخ يقول بأن أخلاق السادة وأخلاق العبيد في تناوب في السيادة، ففي العصر اليوناني والروماني، سادت أخلاق السادة، وكانت الغلبة للأقوياء . ثم انتصرت وسادت أخلاق العبيد على يد اليهودية والمسيحية، وكانوا يقهرون الأرستقراطية الرومانية. ثم عادت أخلاق السادة في عصر النهضة الأوربية، وذلك بعودة ما كان عليه الرومان. ثم عادت أخلاق العبيد في حركة الإصلاح الكنسي، التي أثارها الضعفاء والعوام. ثم عادت أخلاق السادة عند نبلاء القرنين السابع عشر والثامن عشر. ثم عادت أخلاق العبيد بقهر النبلاء في عهد الثورة الفرنسية، وتعقبها أخلاق السادة على يد نابليون، ولكنها تندحر بأخلاق العبيد بعده بقليل. وظهور أخلاق السادة في كل هذه الفترات، تكون لماماً وشذراً، وتختفي سريعاً ، ليكون الأصل أخلاق العبيد والوهن والضعف[2].

وأخلاق وقيم العبيد هذه تتنافى مع قوانين الطبيعة. فالطبيعة تحتم

١ - أخلاق السادة وأخلاق العبيد من كتاب بمعزل عن الخير والشر . فقرة ٢٦ زكريا ص١٦٦.

٢ - راجع: السابق ص٩٤، ٩٥.

انقراض الضعفاء، وبقاء الأقوياء الصالحين للحياة. بينما أوجبت قيم العبيد مساعدة الضعيف والمعتوه، وأقامت المستشفيات من أجلهم "[1].

ولكن : كيف نشأت أو بدأت أخلاق السادة وأخلاق العبيد ؟

في البداية نشأت الحضارات الكبرى، بوجود طائفة من الأرستقراطيين، الأقوياء ، الأشداء، الشبيهين بالحيوانات المفترسة، جابت كثير من الأرض، وأغارت عل كل البلاد التي تعترضها، وفرضت إرادتها وسيادتها بقوتها على كل هذه الشعوب، وبهذا نشأت الحضارات اليونانية، والرومانية والجرمانية.

وصفات هؤلاء الصنف من الناس: أنهم محبون للغزو، معترفون بقوتهم، قساة على أنفسهم وعلى غيرهم، يحتقرون الرحمة والتسامح والضعف والخضوع والملق والنفاق، وكل ما يؤدي إلى الضعف. وهو يأخذ حقه من غيره بالقوة، فلا يقبل العفو من الغير، ولا يهتم بالحياة، ولا بنعيمها، ولا بالسلام، والطمأنينة، والهدوء. فالنعيم عنده في الانتصار والتحطيم. ويحس بسعادة غامرة وبسرور كبير في إهانة وتعذيب الغير. ويقابل الشر بعشرات أمثاله، وتحاول هذه الطائفة أن تحافظ على نقائها وصفائها وصفاتها، ولهذا تحاول أن تبتعد ، ولا تتصل بالطبقات الدنيا؛ الشعوب المسودة.

وهؤلاء اخترعوا لأنفسهم شريعة خاصة بهم، تؤكد سيطرتهم وسطوتهم وسيادتهم على غيرهم" فالأحكام الشرعية التي تصدرها الطائفة الحربية، تقوم على قوة جسمية، وصحة زاهرة، وتراها تعتني بكل ما يتصل بالقوة، والغزو، والحرب، والمخاطرة، والصيد، والرقص، والألعاب البدنية، وعلى العموم، كل ما يكشف من حيوية فياضة حرة مسرور "[2].

---

١ – راجع: الفلسفة الخلقية ص٢٣٢.

٢ – الفلسفة الخلقية ص٢٣٢.

ومن صفاتهم كذلك : "حب الصراحة، وكراهية الكذب والنفاق والخداع، والنفور من أنصاف الحلول، والميل إلى الظفر في ميادين الكفاح، وقهر المنافسين، والسير على جثثهم في غير رفق ولا رحمة.

ومجتمع الأقوياء هذا يجب أن يسوده الحرب دائماً، وإذا كان هناك سلاماً، فليحبوه باعتباره وسيلة لتجديد الحرب" أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحرب، وخير السلام ما قصرت مدته. إنني لا أشير عليكم بالسلم، بل بالظفر، فليكن عملكم كفاحاً، وليكن سلمكم ظفراً. لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها. وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال ، فليكن سلمكم ظفراً .

تقولون: إن الغاية المثلى تبرر الحرب، أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى، تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس[1]. وما أنقذ الضحايا حتى الآن، إلا إقدامكم لا إشفاقكم. ما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة[2].

فكأن الحرب في مجتمع الأقوياء من وجهة نظر نيتشة، يجب أن تكون غاية في ذاتها، وليست وسيلة للوصول إلى هدف نبيل.

ويخاطب نيتشه المحاربون في مجتمع الأقوياء بقوله: " إن ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم، وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم، فما عدوكم إلا مدعاة مباهاتكم، فإذا عملتم بوصيتي، يصبح انتصاره وانتصاراً لكم أيضاً . إن الثورة مفخرة للعبيد ، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم، وليكن أمر الآمر فيكم جزءاً من هذه الطاعة نفسها. إن المحارب الصادق، يفضل ما يجب عليه على ما يريده، فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به إلى هدف

---

١ – يقصد : الدين والأخلاق .

٢ – زارا ص٣٧، ٣٨.

رغباتكم، ولـيكن حـبكم للحيـاة، تعبيراً من أسمى أمانيكم، ولتكن هذه الأماني، عبارة عن أرفع فكرة فـي الحياة، وما أرفع فكرة لكـم؟ وأنـا أستميحكم إبداءها لكم كأمر. ألاَّ هذه القاعدة "ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه "[1].

ومقياس القـوة وصـفات هـذا الصنف هو الذي يجعل الدول تجور وتعتدي على جيرانها . يقول نيتشه: " إن كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب، وكل ما ينيله النصر والمجد، ويلقي الرعب في روع جاره، مثيراً حده ، إنما هو في نظره ذو المكانة الأولى، وما أحتل المقام الأول في اعتباره ، يصبح مقياساً لجميع أموره، ومعنى لجميع ما يحيط به . فإذا ما تمكنت من الإطلاع على حاجات أي شعب، وجدت أرضه، وجوه، وحالة جاره، فإنك لتدرك النواميس التي تـتحكم فيه، وتحفزه إلى المجالـدة للغلبـة على أهوائه، ولتعرف الـسبب فـي اختياره مراقيه الخاصـة، يتـدرج عليها لبلوغ أمانيه "[2].

وفي المقابـل: وجـدت شـعوب أخرى، ذليلة، مهينـة، مـستكينة، كونت طبقة من الأغلبية والرعـاع والضعفاء ، المغلوبين على أمرهم.

اخترعت هذه الطائفة لنفسها قيماً أخلاقيـة أخـرى، وهـي الـضعف والاستسلام. ولما كانت هذه الطبقة من الضعف والذلة والهوان ، بحيث لا يستطيعون أن يجـابهوا الـسادة الأقوياء، فإنهم اخترعوا لأنفسهم أخلاق العبيد والرعاع، التي تخالف القيم التي وضعها السادة .

فقد وضعوا الأخلاق التي تـشيد بالتـسامح، والـصبر، والحلـم، والـصفح، والعفـو، والرحمـة، والإيثـار، والعطـف، والتواضـع، والمسالمة، والوداعة، إلى غير ذلك من الصفات والخلال، التي تدل على الضعف والجبن، والخور، والتي هي من ملتزماته.

---

١ - زارا ص٣٨.

٢ - السابق ص٤٧.

فكل ما يعد خيراً في حق الطائفة الأولى أخلاق الـسادة كـان شـراً ونقصاً في حق الطائفة الثانية أخلاق العبيد، فالعبيد يظنون أن الأخـلاق الرديئة هذه فضيلة وسامية لا لشئ إلا لـضعفهم . ومـن هـذا ظهـر التناقض الواضح بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد.

فالعبيد أو المسودين لا ينظـرون إلى الأشـياء نظـرة الـسادة، ولا يسمون الأشياء بأسمائها الحقيقية ، بل يسمونها بأسماء أخرى تتناسـب مع ضعفهم، فهـم يقلبـون القـيم فيسمون العجز مثلاً: " إحسانا وطيبة "، ويسمون عدم مقدرتهم على الرد بالمثل " صـبرًا " ، ويعدونـه مـن أمهات الفضائل. ويسمون حـاجتهم إلى الآخرين وعدم الاعتمـاد علـى أنفـسهم وعجـزهم " رحمـة " . ويسمون عجزهم وعدم نيل عظـائم الأشـياء ومعاليهـا " تواضـعاً " . وهكذا في كل خلق. فهـم يهـددون القيم الجيدة النبيلة، ويضعون مكانها ما يدل على الهوان والضعف والذلة والعجز والخضوع والانكـسار. " هم يتلقون الحادثات متهكمين ، وإذا نشأ بينهم خلاف، بادروا إلى حسمه صلحاً؛ لأنهم يحـاذرون أن تـصاب معدهم بالعلل والأدواء "[1].

إن أخلاق العامة ، أفسدت الحياة، فالأولى بهم المـوت، لأنهـم أشـد الناس خطـراً " إن الأرض مكتظـة بالدخلاء، وقد أفسدوا الحياة. فمـا أجدرهم بـأن تـستهويهم الحيـاة الأبدية، ليخرجوا من هذه الدنيا. لقد وصف المنذون بـالموت بالرجـال الصفر والسود ــ غير الأقوياء ــ ، ولسوف أصفهم أنا ، فينكشفون من ألوان أخرى أيـضاً . إنهـم لأشـد الناس خطـراً؛ إذ كمـن الحيـوان المفترس فيهم، فغدوا ولا خيار لهم إلا بـين حـالتين. حالـة التحـرق بالشهوة، وحالة كبتها بالتعذيب. وما شـهوتهم إلا التعـذيب بعينـه. إن هؤلاء المسوخ، لم يبلغـوا مرتبـة الإنسانية بعد. فليبشروا بكره الحياة، وليقلعوا عن مرابعها. هـؤلاء هـم

---

١ - زارا ص١١.

المصابون بها بل الروح، فإنهم لا يكادون يولدون للحياة، حتى يبدأ موتهم، وقد شاقتهم مبادئ الزهد والملال. يود هؤلاء الناس أن يُدرجوا في عداد الأموات. فعلينا أن نحبذ إرادتهم، ولنحترس من أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات، وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة[١].

ويذهب نيتشه إلى أن سبب وجود مجتمع الضعفاء والرعاع. هو الحكومات التي تعتمد على نظم حكم لا تقوم على القوة[٢]"إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة. انظروا إلى هذه الحكومة، كيف تجتذب إليها الدخلاء، فتضمهم إلى صدرها، وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً ؟ اسمعوها تهدر قائلة: ليس أعظم مني على وجه الغبراء، فأنا يد الألوهية المنظمة وعندما تهتف هذا الهتاف، تتهاوي الركب جاثية، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر "[٣].

وإذا كان هناك سادة وعبيد فلا مساواة بين الناس. ويجب أن تنشأ الخلافات والنزاعات بينهم حتى تقوم الحروب. " العدالة علمتني أن لا مساواة بين الناس، وأنه من الواجب ألا يتساووا ... على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق، وآلاف المعابر، مسارعين نحو آتي الزمان. وتنشأ بينهم الحروب، وتتسع شقة التفاوت بينهم على مر السنين. يجب أن يقيم الناس في أعماق سرائرهم مثلاً عليا وأشباحاً، يجاهدون في سبيلها، فيسير الصالح والطالح، والغني والفقير، والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما في الأرض من نظم، فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح، ورمزاً لرمز؛ لأن الحياة لن تتفوق أبدا على ذاتها "[٤].

والأصل في الإنسان الشجاعة والقوة، وما الخوف إلا عارض

١ - السابق ص٣٥، ٣٦.

٢ - كالأنظمة الديموقراطية مثلاً.

٣ - زارا ص٣٩.

٤ - السابق ص٨٥.

وشذوذ فيه. " فاعلم أن الخوف شذوذ في الإنسان؛ لأنه ما نشأ في الأصل إلا مفطوراً على الشجاعة ، طماحاً إلى تقلبات الحدثان، مأخوذاً بلذة الشك، مدفوعاً لاقتحام المجهول. فالشجاعة أولى عواطف الإنسان، إذ استهوته فضائل الضواري، وأشد الحيوانات عزماً وإقداماً ، فما عتم حتى غنم هذه الفضائل منها، وهكذا صار إنساناً"[١].

ويتهكم نيتشه على الضعفاء الذين يظنون أن جزاءهم الجنة: " إن البائسين وحدهم هم الأخيار والفقراء والعاجزين والحقراء، وحدهم هم الصالحون. وهؤلاء الذين يتألمون ويتعذبون ، هؤلاء المرضى المعوزين المشوهين، هم وحدهم أيضاً الطيبون الأبرار، الذين باركهم الله، وهم وحدهم الذين سيحظون بالنعيم، أما أنتم معشر النبلاء الأقوياء، فأنتم الأشرار القساة، أنتم الطماعون النهمون، أنتم الفجار، وستظلون أبد الآبدين ملعونين، قد بؤتم بغضب من الله "[٢].

عجز العبيد والدهماء والمسودين هذا، يجعلهم يحقدون على الأقوياء، ولكنهم لا يظهرونه لعجزهم عن إظهاره، ويتراكم هذا في أنفسهم ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يردوا مباشراً، فيلجأون إلى طرق أخرى غير مباشرة، مما يجعلهم ينتظرون فرصة، وإذا أتيحت لهم انقضوا على خصومهم، ونالوا منهم بقوة.

<u>ولكن : كيف تنشأ ثورة العبيد على السادة ؟</u>

تنشأ ثورة العبيد ، عندما يتراكم الإحساس بالعجز والضعف في أنفسهم، وعدم مقدرتهم على الرد المباشر. ويكون ذلك بقول وفعل كل ما يخالف أخلاق السادة. فإذا قال السادة نعم لشئ قالوا في أنفسهم لا.

ولكن: كيف توجد وتنشأ قيم العبيد؟ وكيف يجعلون هذه القيم صواباً ويستبدلونها بقيم السادة ؟ .

١ - السابق ص٢٥٣، ٢٥٤.

٢ - بدوي ص١٦٩.

يبين نيتشه هذا في نص طويل، وبأسلوب لاذع، ساخر، متهكم، كأنه يتحدث مع آخرين من العبيد. يقول نيتشه: " هل يريد أحد أن ينزل الهوة العجيبة الخفية ، التي يستطيع المرء أن يرى كيف تصنع "المثل العليا " على الأرض ؟ ــ أخلاق العبيد ــ من يشعر أن لديه الشجاعة الكافية؟ هيا بنا . انظر ! من هنا يستطيع المرء أن يلقي نظرة على هذا المصنع المظلم. لكن على رسلك قليلاً سيدي الجسور. فلابد لعينيك أن تتعود رؤية هذا النور الباطل الخداع ...

آه ! لقد وصلت ! حسنا ! تكلم الآن أخبرني بما يجري في هذه الأعماق؟ قل لي ماذا ترى أيها الرجل الخطير الاستطلاع؟ هأنذا أصغى إليك الآن بنفسي.

إني لا أرى شيئاً، ولكني أسمع أشياء ... أسمع لغطاً خفياً، وهمساً ضعيفاً، ونأمة خبيثة حذرة، تنبعث من جميع الزوايا ، وأن كل صوت تشوبه عذوبة فاتنة مغرية. فهناك ألاعيب وأكاذيب تجعل من الضعف "فضيلة" ، هذا لا شك فيه. وكل شئ كما قلت. ثم ماذا !.

ومن العجز الذي لا يقوى على الانتقام لنفسه " إحساناً " ، ومن الوضاعة الجبانة "تواضعاً"، ومن الخضوع لمن يبغضهم المرء "طاعة" ــ أي طاعة لآمر يأمرهم بهذا الخضوع يسمونه الله ــ . ووقوف الضعفاء موقفا سلبيا، وجبنهم جبناً شديداً ، يقف عند الباب وينتظر في استسلام، هذا كله يسمونه "صبراً" ويعدونه هو أيضاً فضيلة "أحياناً" . وقولهم: "لا أستطيع الانتقام لنفسي" يصبح "لا أريد الانتقام لنفسي"، بل قد يصير " أنا أعفو عنهم "؛ لأنهم هم أنفسهم لا يعرفون ما يعملون، ونحن وحدنا نعرف ما هم يعملون. ويتحدثون عن " حب الأعداء" ، ويتصبب العرق منهم على شكل قطرات غليظة.

ثم ماذا !.

وأنهم لبائسون من غير شك، كل هؤلاء الأفاكين المزورين، على

الرغم من تساندهم وتجمعهم مع بعضهم البعض، ولكنهم يزعمون على الرغم من هذا كله، أن بؤسهم علامة على أن الله ميزهم واختارهم.

ثم ماذا !.

ثم هم يريدون أن يوقعوا في روعي ليس فقط أنهم أحسن من الأقوياء وسادة العالم، مع أنهم مضطرون إلى أن يلعقوا بصاق هؤلاء السادة ــ لا خوفا منهم، كلا لا خوفا مطلقاً، لكن لأن الله يأمر بطاعة أولي الأمر ــ بل أيضاً أنهم أسعد حظاً منهم.

ولكن : كفى ! كفى ! . فلم يعد لي قبل باحتمال هذا .

الهواء الهواء !. إن هذا المصنع الذي يصنع فيه المثل الأعلى، يبدو لي أنه يزكم الأنوف بأكاذيبه.

مهلاً ! مهلاً !. انتظر لحظة أخرى ! فلم تقل لي بعد شيئاً عن هؤلاء السحرة الذين يقدرون على تحويل الأسود الحالك إلى أبيض كبياض اللبن والطهارة- يقصد رجال الدين- .

ألم تلاحظ براعتهم الكبرى وخفة أيديهم المرئية، وفنهم اللبق، اللطيف، الخبيث؟ إنتبه ! هذه الكائنات المتخفية الورمة انتقاماً وكراهية، ماذا تعمل بهذا الانتقام، والكراهية ؟ وهل سمعتم ينطقون بهذه الكلمات ؟ وهل يخطر ببالك إذا لم تسمع غير مجرد كلامهم، أنك وسط أصحاب الذحل[1].

فاهم ما تقول . وهأنذا أرعى سمعي من جديد. ولكني مضطر مع الأسف الشديد إلى سد أنفي الآن، والآن فحسب أفهم ما قالوه، وكرروه مراراً منذ زمان طويل "نحن معشر الأخيار عند العادلون، فما يطلبونه ليس انتقاماً ، وإنما انتصار العدالة"، وما يكرهونه ليس هو عدوهم، كلا ! وإنما "الظلم والفسق". والذي يشيع في نفوسهم ليس هو الأمل في الانتقام، ونشوة الانتقام العذبة، وإنما: "نصر الله، الله العادل، على الفاسقين والفجار" . وما بقى

---

١ - الجذور المترسبة في أعماق النفس.

لهم على الأرض ليحبوه ليس إخوانهم في الكراهية والحقد، وإنما "إخوانهم في الحب". وهم الأخيار العادلون في الأرض "[١].

وبهذا يتبين كيف تطفو أخلاق العبيد، وأن الدافع إلى ظهورها حب الانتقام والرغبة في التشفي، والكراهية للسادة. وهم على الرغم من هذا لا توجد عندهم القدرة ولا الشجاعة على إظهارها، فيتقبلون الوضع القائم، ويبررون ذلك بأن هذه القيم ـ أخلاق العبيد ـ قد اختاروها بأنفسهم لأنفسهم.

وهؤلاء العبيد والضعفاء والعجزة، حتى يقبلوا وضعهم، ويصفونه بأنه الأفضل، يقولون : فإن على المرء ألا يأخذ حقه بنفسه، ولكن يدع هذا للإله "لنكن على عكس الأشرار، أي لنكن أخياراً، والخيِّر هو من لا يقسو على أحد، ولا يعتدي على إنسان، ولا يهاجم ، ولا يدرك ثأره بنفسه، بل يدع للرب مهمة الانتقام، وهو يلبث متخفياً مثلنا، متجنباً مواجهة الشر، ولا ينتظر من الحياة إلا الضئيل مثلنا نحن معاشر الصابرين، المتواضعين العادلين "[٢].

ولكن هذا التبرير الذي برره نيتشه للضعفاء، وقال به على لسان الضعفاء، لا يسلم به، وينتقده ويبين فساده، فإن هذا معناه: " نحن معاشر الضعفاء، قد قدر علينا نهائياً، أن نكون عجزة ضعفاء. ومن الخير ألا نفعل شيئاً لسنا بقادرين على فعله قدرة كافية "[٣].

وهنا يضيف نيتشه شيئاً جديداً، في تبرير العبيد والعامة لأخلاقهم وقيمهم. وهذا التبرير يعتمد على دعامتين.

وكأن نيتشه بهاتين الدعامتين، يريد من ورائهما هدم الدين، وهدم التعلق بالله وهاتين الدعامتين هما:ـ

(١) **الروم** . ويعني بها وجود ذات وحقيقة منفصلة عن الجسم،

---

١ ـ بدوي ص١٧٤ـ ١٧٧.

٢ ـ بدوي ص١٧٨.

٣ ـ السابق ص١٧٨، ١٧٩.

لها كيانها الخاص بها. وهذا من التناقض في آرائه؛ لأنه في مواضع أخرى أنكر الروح، وأنكر أن يكون الإنسان مكون من عنصرين.

(٢) **القول بحرية الإرادة:** وحرية الإرادة من الأوهام التي يقع فيها العقل، وهي حيلة خبيثة فذة، ابتدعها رجال الدين المسيحي، حتى يجعلوا الإنسان مسئولاً عن أفعاله. ويحق لرجل الكنيسة حينئذ محاكمته ومعاقبته، فلا توجد حرية إرادة، ولكن توجد حرية عظيمة، التي تتحقق بخلاص العالم وبراءته من كل الأوهام الميتافيزيقية التي تعترضه، وأولها الإله . يقول نيتشه : "لم نعد اليوم نأخذ فكرة الإرادة الحرة بأي شفقة، إننا نعرف حقيقتها تماماً، فهي أقذر حيلة من حيل رجال الدين، وهي تهدف إلى جعل الإنسانية، مسئولة بالمعنى الذي يقصدونه، أي أن تعتمد عليهم ... لقد ابتدع مذهب الإرادة أساساً بهدف العقاب؛ أي لأن الإنسان يريد أن يلصق ذنباً بغيره. إن السيكولوجيا القديمة كلها سيكولوجيا الإرادة، تحددها حقيقة أساسية، وهي أن أصحابها الأصليين، وعلى رأسهم الكهنة، أرادوا أن يخلقوا لأنفسهم حق العقاب، أو أرادوا أن يخلقوا هذا الحق للإله ، لقد اعتبروا الإنسان حراً، لكي يحاكموه ويعاقبوه. واليوم نحاول نحن اللا أخلاقيون، بكل قوتنا، أن نخرج فكرة الذنب والعقاب من العالم مرة أخرى. وأن ننظف علم النفس، والتاريخ، والطبيعة، والمؤسسات الاجتماعية، وجزاءاتها، إذ ليس هناك في نظرنا خصومة متطرفة ، أكثر من خصومة رجال الدين، الذين يفسدون بفكرة النظام الأخلاقي العالم، براءة الصيرورة بواسطة العقاب والذنب. إن المسيحية هي ميتافيزيقا الجلاد"[١].

ومن خلال رفض نيتشه فكرة حرية الإرادة ، أنكر وجود الله،

---

١ ـ فلسفة نيتشه ص٨٥.

وبإنكاره يكون خلاص العالم، وأن الإنسان فقط هو الذي يعطي صفاته بنفسه[١] فلا يوجد إله يقول نيتشه : " إنه ما من شخص يعطي الإنسان صفاته، لا الإله، والمجتمع، ولا والداه، ولا هو نفسه، ليس هناك شخص مسئول عن وجود الإنسان على هذا النحو أو ذاك، أو في هذه الظروف، أو في هذه البيئة إن القدر الذي يحكم وجود الإنسان، لا ينفصل عن ذلك، الذي يحكم وجود كل ما هو كائن، وما سوف يكون . إن الإنسان ليس نتيجة لغرض معين، أو لإرادة، أو لغاية، وليس موضوعا لمحاولة تهدف إلى بلوغ مثل أعلى للإنسانية، أو مثل أعلى للسعادة، أو مثل أعلى للأخلاق. ومن العبث أن نصبوا إلى تطوير الوجود الإنساني على أساس غاية معينة أو غير ذلك. لقد ابتدعنا فكرة الغاية، ولا يوجد غاية في الواقع"[٢].

---

١ - كما تقول الوجودية

٢ - السابق ص٨٦.

والضعفاء والعامة والرعاع والعبيد زعموا أن الضعف والاستكانة وغيرهما اختاروها بإرادتهم ، ولكنها في الحقيقة مفروضة عليهم.

وحتى يثبت هذا في أذهان العامة، ويكون هو الخلق الصواب، ألحقوا بهاتين الدعامتين أشياء أخرى، مثل : فكرة الثواب والعقاب. فإن من يرضى بهذه الأفكار، ينال ثواباً أخروياً، ومن يبتعد وينأى عنها يعاقب في الآخرة.

وبهذا يخلص نيتشه إلى النتيجة التي عمل للوصول إليها، وهي أن السبب في انحلال أوربا وضعفها، هو سيادة وانتصار قيم وأخلاق العبيد. وأن منبع ومصدر الأخلاق ليس هو الله كما تقول الأديان - وخاصة اليهودية والمسيحية - وليس العقل أيضاً " فالفلسفة متضافرة مع الدين فيما يراه نيتشه مؤامرة تهدف إلى اقتلاع الحياة من جذورها، وإحلال إرادة إماتة الحياة، محل إرادة الحياة "[٣].

---

٣ - زكريا ص٨٦.

ونقول له في هذا : إذا كانت الفلسفة أو العقل تشارك الدين في المنهج الخلقي الذي رفضه أليس المنهج الذي اتخذه لهدم المنهج الخلقي السائد فلسفة وإعمالاً للعقل؟

ويخلص نيتشه أيضاً إلى : أن منبع الأخلاق هي الطبيعة الإنسانية، فيما فيها من غرائز، وعلى رأس هذه الغرائز جميعاً، حب السيطرة، وإرادة القوة. ولا يحكم على الشئ بأنه خير في ذاته، وإنما الحكم يرجع إلى طبيعة الفاعل للشئ.

ويرى نيتشه أن الواجب في الأخلاق ، أن تكون متفقة مع مقتضيات الطبيعة وأحوال الواقع وأخلاق العبيد لا تتفق مع مقتضيات الواقع، بل هي غريبة عنه، وعلى هذا فإن ما يطلق عليه نظريات أخلاقية أو فلسفة أخلاقية، كلها أوهام لا أساس لها من الصحة" ولا تعثر في كل تطور الأخلاق على حقيقة. فكل مبادئها أكاذيب ، وكل تحليلاتها النفسية تلبيسات وتزوير، وكل أشكال المنطق التي أدخلها الناس في مملكة الأكاذيب. هذه ليست إلا سفسطات"[١].

ويخلص نيتشه من كل هذا أيضاً إلى نتيجة خطيرة قال بها دارون وأتباع التطوريين، وهي الانتخاب الطبيعي. فيجب أن يبقى الأقوى والأصلح، وأن يباد الضعيف والغير صالح، الذي إذا دخل في معركة للوجود والبقاء، لم يستطع البقاء. " الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، هذا هو أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية. ويجب أيضا أن يساعدوا على هذا الفناء. أي الرذائل أشد ضرراً ؟ الشفقة على الضعفاء العاجزين "[٢].

ولا شك أن هذا الكلام باطل ومتهافت، وكان من مقتضياته - كما سبق - أن يقضي على نيتشه ذاته، وعلى أبيه من قبله.

كما أن نيتشه رأى أن من مساوئ أخلاق العامة، أنها تجعل الناس جميعاً سواسية متساوون مع

---

١ - بدوي ص١٨٩.

٢ - بدوي ص٢٠٥.

أن قوانين الطبيعة تجعل الموجودات والكائنات متفاوتة في وضع رأسي لا وضع أفقي، بمعنى أنهم في نظام تصاعدي. ولا شك أن هذا الكلام من نيتشه هو هو بعينه القول بالتطور المرفوض ديناً وعقلاً وواقعاً.

الشر والشر وتعامل الأعداء:

يبين نيتشه أن شر العدو هو خير، لأنه يكون سببا في القوة. ويجب التعامل مع العدو من منطلق القوة، والرد لا بالمثل، بل بأمثال مضاعفة. " إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير؛ لأنه يستصغر بذلك نفسه، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم، والأجدر بكم ألا تحتقروا واحداً، تظاهروا بالغضب. وإذا وجهت اللعنة إليكم، فلا يسرني أن تمنحوا البركة، إن ما يسرني هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضاً . وإذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة، فبادلوا المعتدي مثلها، وأرفقوها بخمس مظالم صغرى ؛ لأنه ما من مشهد أشد قبحاً، من مشهد لا يخضع إلا للظلم "[1].

وإذا ظلم الإنسان بأي نوع من أنواع الظلم، فالواجب عليه أن ينتقم لنفسه، ويأخذ حقه. وأخذ الحق من المعتدي هو حق له. " لئن ينتقم الإنسان قليلاً، فذلك أدنى إلى المعروف. وليس من الإنسانية، أن يترفع المظلوم عن الانتقام . إنني لأنفر من اقتصاصكم؛ إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدي"[2].

١ - زارا ص٥٥.

٢ - زارا ص٥٦.

القضاء على الضعفاء:

يقول نيتشه : " على أهل السيادة في الإنسانية المتفوقة، أن يمهدوا سبل السعادة لمن هم دونه بتضحية ملذاتهم وراحتهم. وعليهم أيضا : أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال"[1].

ويقول: " إذا رأيتم متداعياً إلى السقوط، فادفعوه بأيديكم، وأجهزوا عليه... كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران، فعلموه على الأقل أن يسرع بالسقوط "[2].

وعلى الضعفاء أن يساعدوا الأقوياء للوصول إلى أهدافهم. " إن نظرة واحدة تكفي المتأمل، ليرى أن كل شئ يتداعى، فيجب أن يعمل الهادمون بطريقة تدع للأقوياء ، مجالاً لإقامة الحياة على شكل جديد"[3].

ونظرة نيتشه إلى الضعفاء، بوجوب القضاء عليهم، تتناقض مع ما أبداه، من أن قوة الإنسان وتميزه في ضعفه وعاهته. فإذا أزيلت عاهته وضعفه زالت خصائصه، وأن هذا رأى الشعب وهو يتابعهم فيه. "من يدفع عن ظهر الأحدب حدبته، فقد نزع منه ذكاءه. هذه هي تعاليم الشعب. وإذا أعيد النور إلى عيني الأعمى، فإنه ليرى على الأرض كثيراً من قبيح الأشياء، فيلعن من سبب شفاءه. ومن يطلق رجل الأعرج من قيدها، فإنه يورث أذية كبرى؛ إذ لا يكاد يسير ركضًا، حتى تتحكم فيه رذائله، فتدفعه إلى غايتها"[4].

ونقول لنيتشه : كيف هذا ؟ ومن هو الذي يضع المقياس الذي يقاس به من يصلح للحياة، فيبقى عليه. ومن يُقضي عليه؟ . لا جواب لهذا عند نيتشه.

١ - السابق ص ز.

٢ - زارا ص١٧٨.

٣ - السابق ص٢٧٦.

٤ - السابق ص١١٦.

رأي نيتشه في بعض الفضائل الخلقية

لنيتشه آراء خاصة في بعض الفضائل الخلقية منها:

خلق العفة : لا توجد قاعدة ثابتة مضطردة فيها. فقد تكون فضيلة عند البعض ورذيلة عند آخرين، وأن الحيوان أكثر عفة من الإنسان. يقول نيتشه: "ليتك حيوان اكتملت حيوانيتك على الأقل، ولكن أين منك طهارة الحيوان؟ ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك، إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس. ما أنا بالمشير عليك بالعفة؛ لأنها إذا كانت فضيلة في البعض، فإنها لتكاد تكون رذيلة في الآخرين، ولعل هؤلاء يمسكون من التمتع، غير أن شبقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم ... إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم، فعليه أن يعرض عنها، كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى الجحيم ، جحيم أقذار النفس ونيرانها "[١].

فالعفة وغيرها من الفضائل ضارة بأصحابها، ولا يستطيع العقل أن يؤائم بينها وبين غيرها " الفضائل كالنشاط، والطاعة، والعفة، والتقوى، والعدالة، هي في أغلب الأحيان ضارة بأصحابها؛ إذ هي ميوله تسيطر عليهم بشئ غير قليل من العنف والشدة، ولا يستطيع العقل أن يحقق التوازن بينها وبين سائر الميول"[٢].

خلق الصدق: أما الصدق فإن الإنسان يصدق لأن الصدق فيه دعة وراحة، بعكس الكذب. يقول نيتشه: " لماذا يقول الناس الحقيقة في الحياة اليومية وغالب الأوقات؟ بالتأكيد ليس لأن إلهاً منع الكذب. لكن : وأولاً لأن في ذلك كثيراً من الملائمة والدعة والراحة. فالكذب يتطلب اختلافاً، إخفاءً وذاكرة "[٣].

وكذا كل الفضائل لا يستعملها الإنسان " لتنم الفضائل لتنم؛ فإنها ستستيقظ أكثر نضارة "[٤].

---

١ - زارا ص٥٤، ٥٥.

٢ - إلى دعا ة إنكار الذات . العلم المرح . فقرة ٢١. زكريا ص١٦٠، ١٦١.

٣ - ما وراء الخير والشر ص١٦.

٤ - السابق ص ١٧.

والحكم بالصلاح شابه الكثير من التناقض، فيوصف الإنسان بأنه صالح إذا أتى بشئ ، كما يوصف به أيضاً من أتى بنقيضه. " لقد تزعزت الأهداف جميعاً، وذهبت التقديرات في ميادين التفكير متصادمة متناقضة يدعى صالحاً من يتبع ما يوحى إليه قلبه. كما يدعي صالحاً أيضاً من لا يصيح إلا بصوت الواجب.

يدعى صالحاً الرجل اللطيف المسالم. كما يدعي صالحاً أيضاً الرجل الجسور العنيد القاسي.

يدعى صالحاً من لا يكبت نزعاته. كما يدعي صالحاً أيضاً من يتحكم فيها.

يدعى صالحاً من يطمح إلى الحقائق مطلقاً كما يدعي صالحاً أيضاً من يموه مظاهر الأشياء.

يدعى صالحاً من يجاري نفسه. كما يدعي صالحاً من يتصف بالخشية والتقوى.

يدعي صالحاً الرجل الممتاز النبيل. كما يدعي صالحاً أيضاً الرجل الذي لا يحتقر أحداً، ولا يترفع عن أحد.

يدعى صالحاً الرجل الطيب الذي يتقي الجدل. كما يدعي صالحاً أيضاً الرجل المتشوق إلى العراك والظفر.

يدعى صالحاً من يطمح إلى المقام الأول. ويدعي صالحاً أيضاً من لا قبل له بالانتفاع مما يُلحق الضرر بسواه"[١].

ويوجه نيتشه دعوة إلى دعاة الأخلاق، بأن الحديث عن الأخلاق عموما يقضي عليها، يقول: " إلى دعاة الأخلاق: لن أمارس الوعظ الأخلاقي بعد، لكن سأقدم للواعظين هذه النصيحة:

إذا كنتم حريصين على أن تجعلوا أفضل الأشياء، وأفضل الظروف تفقد كل قيمة، كل رفعة؛ تابعوا الدعوة إليها، ولتكن على شفاهكم باستمرار ، ولتكن في قمة أخلاقيتكم من الصباح حتى المساء. لا تتكلموا إلا على سعادة الفضيلة، على اطمئنان

---

١ - السابق ص٢٧٥.

الروح، على العدالة الواسعة، وعلى الأنصاف. إذا بقيتم هكذا، فجميع هذه الأشياء الجيدة ستنتهي إلى أن يكون لها الشعبية والشهرة حتى في الشارع. لكن: مذ ذاك سيصبح كل رائع فيها مستهلكاً تلفاً، لا بل أكثر، كل ما تحتويه من ذهب سيصير إلى رصاص، والحقيقة أنكم صرتم الكيمياء المضادة، أساتذة الحط من قيمة أثمن الأشياء . استخدموا ولو مرة واحدة دواء آخر، كي لا تحصلوا على نقيض ما تبحثون عنه. أنكروا الأشياء الرائعة، حرموها من هتافات وتصفيق الرعاع والدهماء، أوقفوا رواجها السهل... قولوا: ولتكن الأخلاق شيئاً ممنوعاً، لعلكم هكذا تلحقون بهذا الصنف من الرجال – أقصد البطوليين – الذين يلزمون لقضيتكم، لكن وقتها يلزم أيضاً ، أن تحتوي أعلى ما هو مرعب، وليس كالسابق على ما يثير القرف والاشمئزاز، ألا يقال بصدد الأخلاق اليوم ما كان يقوله "إيكهارت" أتوسل إلى الله أن يدفعني إلى ترك الله "[1].

ويقول أيضا: " ليس هناك ظواهر أخلاقية ، بل هناك تأويل أخلاقي للظواهر "[2].

مناقشة المقياس الخلقي عند نيتشكما علمنا أن نيتشه اتخذ من التطور منطلقاً لمقياسه الخلقي، وبالتالي فقد وجد على مر التاريخ أخلاق السادة وأخلاق العبيد، مع شد وجذب بينهما. وهذا المقياس التطوري، إن جاز في بعض الأمور، أو العلوم المادية، كالجيولوجيا مثلاً، فلا ينسحب هذا على علم الأخلاق؛ لأن علم الأخلاق لا يصف أو يقرر ما عليه الناس، بل يبحث في تقييم السلوك "وظيفة علم الأخلاق تختلف عن وظيفة العلوم الطبيعية اختلافاً بيناً ؛ فإنه لا يعني بالبحث في أصل المفهومات الخلقية والمثل العليا، ولا

١ – ما وراء الخير والشر ص١٦٥.

٢ – السابق ص٢١٩.

يهتم بتتبع تطورها خلال الزمن، ولكنه يعرض لتحديد المثل العليا، ومن ثم كانت وظيفته معيارية تقييمية وليست وصفية تقريرية. والمثل الأعلى يقوم في النهاية لا في البداية، أي في غاية السلوك الإنساني، وليس في نشأته "[1].

فالفلسفة الخلقية تعني بتقييم الأفعال، وتجديد غايتها، وتحلل وتقف على أسباب اندثار نوع من السلوك؛ لأنه أصلح للبقاء " إن خيرية الفعل عند التطوريين، مردها إلى صلاحيته للبقاء، والخير يوجد حين يمتنع التصادم بين الأفراد، فيكون المجتمع في توازن مع نفسه"[2].

كما أن ادعاء نيتشه تطبيق قانون الانتخاب الطبيعي على الأخلاق، وأن الأخلاق التي لا توائم المجتمع تندحر، ويبقى الصالح له. يرد على ذلك "د. توفيق الطويل "بمثال عملي من المجال الأخلاقي، فبين أن النزاع بين فكرة ثبات الأنواع، ونظرية التطور، قد انتهى بانتصار الأخيرة بالتدريج، دون أن يكون الانتخاب الطبيعي، هو الذي أفضى إلى هذه النتيجة؛ لأن دور هذا الانتخاب سلبي تلقائي محض. فهو مثلاً يُبقي على العفيف، فيترك أسير شهواته يسترسل معها، حتى يختفي من الوجود، فتتاح بهذا فرصة البقاء للعفيف، الذي يضبط شهواته، أما انتصار نظرية التطور على ثبات الأنواع، فقد تحقق بطريقة أخرى، ذلك أن الفكرة الخاطئة أو الفاسدة، لا تؤدي إلى القضاء على صاحبها، أو إضعافه حتى يختفي من مسرح الوجود ... "[3].

كما أنه لا وجه للمشابهة في الانتخاب الطبيعي بين عالم الأخلاق والعالم الطبيعي، فإن البقاء للأصلح في العالم الطبيعي، كالنبات مثلاً. فالنبات الصالح يبقى، بعد أن تضحي

١ – الفلسفة الخلقية ص٢٣٤.

٢ – السابق ص٢٣٦.

٣ – السابق ص٢٣٨.

في سبيله الآلاف من النباتات التي تنمو بغير ثمر. أما انتصار فكرة على أخرى، فلا يتطلب هذا إبادة المخالفين لها. " إن قانون التطور الطبيعي بيولوجي، يعبر عما هو كائن. وقانون الأخلاق مثالي، ينسجه العقل وتحققه الإرادة. ثم هو تعبير عما ينبغي أن يكون. وإذا كان التطور يمضي في طريقه بجميع الكائنات، من نبات وحيوان وإنسان، فمن العبث أن نجعله قانوناً أخلاقياً، نطالب الناس بالعمل بمقتضاه "[1].

كما أن تقسيم نيتشه لأخلاق السادة وأخلاق العبيد فيه خلط كبير، فهو يدعي أنه بنى هذا بناء على استقراء تاريخي، فهو تقسيم ليس صحيحاً. فالقوة التي عناها هي القوة المادية ، التي تعتمد على البطش " فالقوة في تلك العصور التاريخية، التي تناولها نيتشه، لم تكن قوة معنوية، بل قوة مادية. أعني أن الأقوياء في تلك العصور، لم يكونوا هم أصحاب المشاعر الأخلاقية الرفيعة، الذين تفيض نفوسهم بالامتلاء المعنوي، والفيض الحيوي. بل كانوا هم المسيطرون على زمام الأمور، عن طريق قوة السلاح، أو قوة المال"[2]. وخير مثال على هذا ما استشهد به نيتشه نفسه بالعصر اليوناني، وعصر نابليون، فقد سيطر في العصر اليوناني الفئة الأرستقراطية التي تعتمد على قوة السلاح والمال، وهي بعيدة كل البعد عن ذلك الترفع المعنوي، الذي عناه نيتشه. وفي عصر نابليون كان القوي المسيطر، الفرد المستبد، الذي يبني مجداً شخصياً لنفسه، عن طريق الإرهاب والتعسف والتضحية بأرواح الأبرياء[3].

---

١ - الفلسفة الخلقية ص٢٣٨.

٢ - زكريا ص٩٥.

٣ - راجع السابق نفس الصفحة.

إرادة القوة

يرى نيتشه أن جوهر الوجود، متمثل في إرادة القوة، لا قوة الإرادة. وإرادة القوة تفسر كل مظاهر الحياة. " حيث توجد حياة، توجد أيضاً إرادة، إرادة قوة، لا إرادة حياة. والقوة هي التي تفسر كل الأخلاق. فالوجود هو الحياة، والحياة هي الإرادة، ولا تكون الإرادة إلا إرادة القوة. وما السلام إلا وسيلة للحرب المبنية على القوة " عليكم أن تحبوا السلام كوسيلة توصلكم إلى حروب جديدة. وأن تفضلوا فترة السلام القصيرة على الهدنة الطويلة الأمد. لا خير يضاهي الشجاعة وغاية الحرب الحسنى تبرر كل واسطة"[1].

ونيتشه يعرض عدة أسئلة، متعلقة بالجانب الخلقي، وبدهي أن يكون رده عليها من منطق القوة لا قوة المنطق فيقول:

ما الخير ؟ كل ما يعلو في الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

ما الشر؟ . كل ما يصدر عن الضعف.

ما السعادة؟ . الشعور بأن القوة تنمو وتزيد. لا رضى، بل قوة أكثر وأكثر. لا سلام مطلقاً، بل حرباً ، لا فضيلة، بل مهارة "[2].

ويقول: " إنني أستعرض جميع ما كتب، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه، اكتب بدمك، فتعلم حينئذ أن الدم روح، وليس بالسهل أن يفهم الإنسان دماً غريباً"[3].

والحكمة هي إرادة القوة " تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالي بشئ، تريدنا أشداء، مستهزئين؛ لأن الحكمة أنثى، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب"[4].

---

١ - زارا ص٢٠٩.

٢ - بدوي ص٢٠٥.

٣ - زارا ص٣١.

٤ - السابق ص٣٢.

وإرادة القوة موجودة في كل كائن حي، بنسب مختلفة. وهي لذة لا يمكن التخلي عنها أبداً، " لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي. ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة؛ لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف. فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً؛ لتتحكم فيمن هو أضعف منها. وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها، فلا تتخلى عنها... إن إرادة القوة كامنة حتى في مجال التضحية، والخدمة المتبادلة، وبين نظرات العاشقين ... وأنت أنت يا من تطلب المعرفة ، ليس لك من سبيل غير سبيلي، فعليك أن تقتفي أثر إرادتي، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق. ما عثر على الحقيقة من قال بإرادة الحياة؛ لأن مثل هذه الإرادة لا وجود لها، وليس للعدم إرادة، كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة، ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة. ومع هذا فإن ما أدعوا إليه، إن هو إلا إرادة القوة، لا إرادة الحياة "[1].

وأظهر إرادة من تتجه إلى إبداع المتفوق. " فلا طهارة إلا حيث تتجلى إرادة الإبداع، فمن اتجه إلى خلق من يتفوق عليه؛ فذلك عندي صاحب أطهر إرادة وأتقاها "[2].

ويبين نيتشه أن الوجود الحقيقي هو الحياة التي هي الاستيلاء على الآخرين بالقوة " الحياة هي إرادة الاستيلاء على الآخرين، وإرادة سطو واستقلال. وطابعها المميز هو الاغتصاب، وهضم ما للآخرين. فهي إذن عنصر فناء، وهدم، وإيذاء. ولا يمكن أن تفهم على غير هذا النحو "[3].

وإرادة القوة تتحقق بإرادة الخطر. ويكون ذلك بخلق حالة من التوتر الدائم. فالحياة السامية تكون بالبحث عن الخطر، والإلحاح في طلبه، والمحاصرة بالتهديدات. يقول نيتشه: " أن يجعل الإنسان حياته في خطر، هذا هو نتيجة إرادة فياضة سخية؛ لأن كل خطر كبير، يستثير

١ - زارا ص٩٨.

٢ - السابق ص١٠٤.

٣ - بدوي ص٢٠٧.

حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة". "كي تجني من الوجود أعظم الثمار، وتنعم بما فيه.. عش في خطر"[1].

وأعظم الشخصيات، لا تظهر إلا في أوقات الخطر، حيث يلزم العنف والقسوة، التي لا تعرف الرحمة[2].

ومبعث اللذة ليس إشباع الرغبة، وإرضاء الإرادة، وإنما مبعثها ومنشؤها، عن استمرار الإرادة، وعن انتصارها على كل ما يقف في طريقها. وإذا كان "شوبنهور" يقول بأن الإرادة هي إرادة الحياة؛ لأنها تدفع الإنسان دائما. و"دارون" يقول إنها في استمرار البقاء وحفظ الحياة، فإن هذا خطأ عظيم كما يرى نيتشه؛ وذلك لأن جوهر الوجود هو إرادة القوة، لا إرادة الحياة. وتنازع البقاء يجب أن يكون من أجل الارتفاع بالحياة، ونمو القوة. فالحياة ليست كما يقول " شوبنهور" تطلب من أمر خارج، مع أنه ليس للحياة غاية إلا نفسها. وليست كما يقول "دارون" وذلك "إن إرادة حفظ الحياة، تعبير عن ضائقة ومأزق، وعن تضييق لغريزة الحياة الجوهرية الحقيقية، التي هي التوسع في القوة، بل إن هذه الغريزة، غالباً ما تجعل حفظ الحياة في خطر، وتضحي به. والذي يسود الطبيعة ليس هو الضائقة والمأزق، بل الفيض والتبذير إلى درجة الجنون. وليس تنازع البقاء إلا حالة شاذة، وتضييقاً مؤقتاً على إرادة الحياة. فالنزاع الكبير منه والصغير، يدور في كل مكان، وبين كل الوجوه، حول السيادة والنمو والاتساع، حول القوة، وتبعاً لإرادة القوة التي هي إرادة الحياة "[3].

والعمل يحكم عليه بأن له قيمة بالنظر إلى ذات الشخص وقوته، لا بالنظر إلى العمل نفسه، فهو إذاً نسبي "إذا أمكن للإنسان أن يجعل للعمل قيمة، فكيف يتسنى للعمل، أن يجعل الإنسان ذا قيمة"[4].

١ - السابق ص٢٠٩.

٢ - قصة الفلسفة الحديثة ص٥٣٥.

٣ - بدوي ص٢١٥.

٤ - زارا ص٢٧٨.

والقوة لدى الحكومات، تتعلل من أجلها بعلل واهية، فهي تتعلل بوجودها بحجة الدفاع عن نفسها، ولكنها في حقيقة الأمر، تبقي على جيشها، كي ترضي شهوات العدوان كلما تملكتها، وتتزرع في هذا، بالأخلاق التي تحث بالدفاع عن النفس، وبموقفها هذا تصف نفسها بكونها أخلاقية، وبكون جارتها غير أخلاقية. وهذا افتراض غير أخلاقي. وعلى المرء أن يحمل على فكرة الجيش بوصفه وسيلة للدفاع، بنفس القوة التي يحمل بها على شهوة العدوان، فلا فرق بينهما؛ إذ أنهما يبغيان العدوان[1].

ويجمل نيتشه رأيه ونظرته في الوجود في هذه العبارة " الحياة تعلو على نفسها". ويحلل " د. عبد الرحمن بدوي" هذه العبارة فيقول: " أفكار نيتشه ونظرته في الوجود تقوم جميعها على أساسين اثنين. الأول: إرادة القوة. وهي موجودة هنا في لفظ "العلاء".

الثاني: أن الحياة هي الوجود الحقيقي كله، لا وجود غيرها، أو بعبارة أدق: أن هذه الحياة وهذا الوجود، هي الحقيقة كلها، وليس هناك مطلقاً أي شئ آخر غيرهما، مما يسميه الفلاسفة عالم الحقائق في مقابل عالم الظواهر"[2].

ونقول: لا يخفى أن في هذه العبارة، وهذا التحليل لها، ومن فلسفة نيتشه عموماً، إنكار لوجود الله، ولعالم الغيبيات، وكل شئ خارج هذا الوجود المحسوس.

ويبين نيتشه أيضاً أن مقياس القيم في الحياة، يكون عن طريق إرادة القوة، لا شئ آخر. فإرادة القوي تحدد المستوى، وتعين الطبقات. وإرادة القوة في كل مرافق الحياة، ومظاهر الوجود. "القيمة هي أكبر مقدار من القوة، يستطيع

١ - راجع: وسيلة السلام الحقيقي أشياء إنسانية إنسانية إلى إقصى حد . القسم الثاني : الهائم وظلة . فقرة ٢٨٤.زكريا ص١٨٢، ١٨٣.

٢ - بدوي ٢١٣، ٢١٤.

الإنسان أن يحصله، ويستولي عليه" . ولابد من اعتبار أمر هام في القوة، هو كيفية القوة لا كميتها.

والقوة ماثلة في كل شئ في الإنسان. ففي النفس وما يصدر عنها من أحوال، يستطيع المرء أن يرى إرادة القوة. فإيصال الخير أو الشر للناس هو إرادة القوة. والطبائع القوية تبحث عن أندادها، والضعيفة تلجأ إلى الشفقة حتى تشعر بالقوة.

بل أكثر من ذلك: فإن ظننا أن أبعد الأشياء صدوراً عن الشعور وإرادة القوة، إنما تنبعث أيضاً عن شعور القوة، مثل التدين، والزهد، والأفكار الفلسفية. فالزهاد يشعرون بالقوة في تعذيبهم لأنفسهم "إن السعادة بوصفها الشعور الحي كل الحياة بالقوة، لم يكن في مكان آخر على ظهر الأرض، أكبر مما هو في نفوس الزهاد، المؤمنين بالقوة ".

وأرى أن العبارة لا تشير إلى القوة البدنية أو العضلية ، التي تعتمد على البطش، بل القوة المرادة لهم ــ كما أرى ــ قوة معنوية روحية، بدليل أن معظم الزهاد ، قد لا يتمتعون بالقوى العضلية هذه.

ويبين نيتشه أن الضعفاء خضوعهم للأقوياء شعور بالقوة !! " نحن نخضع، كي نحصل على الشعور بالقوة "[1].

والجماعات والدول والسياسات أيضاً تعتمد على إرادة القوة. فأرباب المال يجمعونه بدافع السيطرة والشعور بالقوة.

وللفرق بين إرادة القوة وإرادة الضعف: أن إرادة القوة تقوم على تنسيق الغرائز كلها تحت راية غريزة واحدة، هي القوة. والاعتدال عنده كلذة الاتزان عند الفارس وهو على ظهر جواد عنيد. أما إرادة الضعف فتقوم على غرائز مختلفة، من غير اتزان وتنسيق بينها. والاعتدال عنده يكون نتيجة لعجزه وفقره. كما أن الضعيف ليس لديه قدرة على مقاومة الإغراء، أما القوي فإنه يجعل الإغراء جزءًا من

١ - بدوي ص٢١٧.

طبيعته وقدرته. يقول نيتشه: "إن الأسباب التي تؤدي إلى جعل الضعاف من الناس صغاراً حقراء، هي عينها التي تدفع الأقوياء والنادرين إلى العظمة والعلاء"[١].

تفسير الوجود باعتباره مظهراً من مظاهر إرادة القوة :

ويكون ذلك من خلال عدة طرق منها:

طريق وسائل المعرفة. فإن وسائل المعرفة لا تتجه إلى الكشف عن الحق، والوصول إليه، وإنما تتجه إلى السيطرة على الأشياء وإخضاعها. ولا دور للعقل في بيان أن هذه الوسائل حقيقية أو نافعة. والحاكم بالنفع على الشئ يكون بما تراه إرادة القوة أنه محققاً لأهدافها. "كل أعضاء المعرفة والحس لدينا ، تتطور من أجل إيجاد ظروف المحافظة على الحياة وإنمائها فحسب، والثقة بالعقل ومبادئه وبالمنطق وقيمه، لا تدل إلا على ما بينته التجربة من نفع لهذه الأشياء بالنسبة إلى الحياة، لا على أنها حقيقية.

وجوهر الحقيقة ليس في كون شئ ما من الأشياء حقاً، وإنما هو أن يعتقد الإنسان أنه حق . فالنفع إذاً هو المعيار الفاصل، في كون الأشياء حقاً أو غير حق. والنفع هنا نقصد به، ما تراه إرادة القوة محققاً لأغراضها، فليس هناك حق في ذاته، أو خطأ في ذاته "[٢].

وعلى هذا.. فإن المبادئ الفلسفية الأخلاقية، لا أساس لها، ولا تحقق فائدة في الواقع، مثل: "الحق للحق" و"من أجل الحقيقة وحدها" و"الحقيقة الموضوعية"، فكل هذه العبارات ليست إلا كذباً ونفاقاً وقناعاً يخفي وراءه إرادة القوة الدافعة لهم، وهدفهم من هذا القدرة على السيطرة، والقوة على سيادة أفكارهم وآرائهم.

وبالقوة أيضاً نميز القيم الجمالية – وهي ما تعرف بالذوق – ، وهي ملكة في الإنسان بها يشعر بلذة

١ – السابق ص٢٢٠.

٢ – السابق ص٢٢١، ٢٢٢.

الجمال، وتكون متفاوتة بين الناس. تقوى ملكة الذوق هذه وتضعف بالقوة والضعف أيضاً. يقول نيتشه: "كل قبيح يضعف الإنسان، ويقبض صدره؛ إذ يذكره بالانحطاط والخطر واهن "[١].

ومن الخير للضعفاء والدخلاء لو أنهم لم يولدوا أصلاً. والقوي هو الذي يختار الوقت الذي يموت فيه. والموت المقدس هو الذي يموت صاحبه، وقد حفز ودفع غيره إلى الأمل، إلى القوة. وعندما يحس الإنسان بأنه قد أدى دوره، فعليه أن يتخير الوقت المناسب لمفارقة الحياة – الانتحار – "ولسوف أنبئكم بالموت الذي يقدس. الموت الذي يدفع الأحياء، ويجتذبهم بحوافزه وآماله، إن من أكمل عمله يموت ظافراً، وحوله من يحفزهم الأمل، وتنطوي فيهم الأماني. تعلموا أن تموتوا هكذا. ولكن اعلموا أن لا ظافر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه ... على الطامحين إلى الظفر، أن يودعوا الأمجاد في الزمن المناسب، ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا في الزمن المناسب أيضاً[٢]. ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين، عندما يكفون عن تذوقها "[٣].

ومن القوة عدم الرحمة، حتى بالأصحاب والأحباب والأصدقاء والأقارب. "إنني والحق أكره الرحماء، الذين يطلبون الغبطة في رحمتهم. فإذا ما قضى علىَّ بأن أرحم، تمنيت أن تُجهل رحمتي، وألا أبذلها إلا عن كثب. أحب أن أستر وجهي عند إشفاقي، وأن أسارع إلى الهرب دون أن أعرف. إن عظيم الإحسان يولد الامتنان، بل يدعو إلى إيقاد الحقد، وإذا تغلب تافه الإحسان على النسيان، فإنه يصبح دوراً ناهشاً ... إذا كان لك صديق يتألم، فكن ملجأ لآلامه، ولكن لا تبسط له فراشاً وثيراً، بل فراشاً خشناً، كالذي

١ – تأملات في فلسفة الأخلاق ص٦٣.

٢ – ربما يقصد الانتحار، أ و اعتزال الحياة ؛ لأنه لا معنى غير هذا.

٣ – زارا ص٥٨، ٥٩.

يتوسده المحاربون؛ وإلا فما أنت مجديه نفعًا"[١].

بل إن نيتشه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى أن موت الإله ـ كما يزعم ـ كان بسبب رحمته: " قال لي الشيطان يوماً: إن للرب جحيماً، هو جحيم محبته[٢] للناس. وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً: لقد مات الإله، وما أماته غير رحمته".

والإرادة من شأنها أن تنقذ صاحبها، ولكن الأمر الواقع يفرض نفسه على صاحبه، وعليه فإن الإرادة تصبح شريرة، مدمرة، على من يقتع بعجزه.

يقول نيتشه: " إن الإرادة تنقذ. ولكن: ما هو تصور الإرادة في عملها، للتخلص من دائها، وهدم جدران سجنها؛ وأسفاه. إن كل سجين يصبح مجنوناً، وما تنقذ الإرادة السجينة نفسها إلا بالجنون. إن الزمان لا يعود أدراجه، ذلك ما يثير غضب الإرادة وكيدها، فهنالك صخر لا طاقة للإرادة برفعه، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع لهذا تهب الإرادة، وقد تملكها الغيظ، مقتلعة الأحجار، منتقمة من كل من لا يجاريها في كيدها وثورتها، وهكذا تصبح الإرادة المنقذة، قوة شريرة، تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات.

وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان؛ لأنه أوقع ما لا قبل لها برده؟ والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون. وقد نزلت لعنة على البشرية، منذ تعلم الجنون أن يفكر. إن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم، إنما هو فكرة الانتقام"[٣].

وعلى القوي أن يتسلح بالأنانية، وهذا يحتاج إلى دربة، ومران كثير، وجلد. "من يريد أن يشعر من نفسه بخفة الطير، فعليه أن يتوسل بالأنانية، للانعتاق من كثافته، ليحب الإنسان نفسه. هذا ما أعلم به أنا.

١ - السابق ص٧٤-٧٦.

٢ - زارا ص٧٦ .

٣ - السابق ص ١١٧، ١١٨.

تعلموا الأنانية الصحيحة السليمة؛ لتتمكنوا من احتمال ذاتكم، فلا تضلكم أنانيتكم. هذا هو تعليمي. وما ضلال الأنانية إلا بذهابها إلى محبة الغير، فإن القائلين بالغيرية[١] قد أتوا بأمهر تمويه، وما أرهق الغير أحد بمثل إرهاقهم. ليس القول بوجوب التمرن على الأنانية وصية من الوصايا، تنفذ بين عشية وضحاها. فالتدرب على محبة الذات، أدق الفنون وأصعبها، وما يملك زمامه إلا المتحيل الجلود "[٢].

ومن القوة اختيار من يُقضي عليه، ومن يستحق البغضاء، وعدم الالتفات إلى الرعاع والعامة. " إنني أحب الشجعان، وما يقنع إعجابي منهم بإحكامهم ضرب السيف؛ إذ عليهم أيضاً أن يمهروا في اختيار من يضربون. ولقد يكون الإقدام الأوفى في الإحجام أحياناً، وفي الاحتفاظ بالقوة لمن يستحق أن تبذل له. لا تتخذوا لكم من الأعداء، إلا من يستحق البغضاء، وتجاوزوا من عداء من لا يستحقون إلا الاحتقار؛ إذ عليكم أن تباهوا بعدوكم. احتفظوا بقوتكم. وما أكثر من يجب أن تمروا بهم متغافلين، وأحقهم بإغفالهم أولئك الزعانف، الذين يخدشون آذانكم بما يتصايحون به عن الأمم والشعوب"[٣].

ورأيه هذا قد يبدو فيه بعض التناقض مع قوله من وجوب قتل الضعفاء والعالة في المجتمع.

ويذهب نيتشه إلى ما هو أبعد من هذا، فإنه يرى أنه من الأفضل أن تنقض أمة على أخرى، وتسوسها، فمن حق الأفضل أن يقود ويسوس: " فيا له عهداً سعيداً ذلك الزمان، الذي كان يهب فيه شعب، معلناً إرادته، بأن يسود غيره من الشعوب. أقول هذا يا إخوتي؛ لأن من حق الأفضل أن يحكم، ولأنه يريد أن يحكم، ولا تسود قاعدة غير هذه القاعدة، إلا حيث لا أفضل منها يعمل بها "[٤] .

١ - يقصد الإيثار.

٢ - زارا ص١٦٣.

٣ - زارا ص١٧٨، ١٧٩.

٤ - راجع : السابق نفس الصفحة.

ويجب أن يشغل العامة والرعاع بلقمة العيش، ويعيشون حياة الفاقة والقسوة ... ويل لهؤلاء الناس، لو أن خبزهم يوزع مجاناً عليهم، فإنهم لا يجدون من يصبون غضبهم عليه، بأي حديث يتحدثون، إذا حرموا قساوة الحياة ؟ إن هؤلاء الناس إلا وحوش كاسرة، في أعمالهم ترض واختطاف، وفي أرباحهم مراوغة واحتيال. فكيف تلذ لهم الحياة، إذا هي خلت من الشدة والقسوة، وهم يرون الإرتقاء في التفوق على الحيوانات افتراساً ومراوغة؛ لأن الإنسان في اعتقادهم أفضل حيوان كاسر "[1].

والإنسان يميل إلى العنف والقسوة، ويحس بلذة في هذا : " الإنسان أقسى حيوان في الوجود؛ لأنه لا يجد ارتياحاً على الأرض، إلا بمشاهدة المآسي، ومصارعة الثيران، والصلب. وما تمتع بلذة الجنان على أرضه، إلا يوم اختـرع الجحيم"[2].

الرد على إرادة القوة :

إن نيتشه يجعل القوة هي هدف وغاية من الإنسان. وما يوجد الإنسان المتفوق إلا لتحقيق القوة. والقوة يجب ألا تكون غاية في ذاتها، ولا قيمة لها بذاتها وقيمتها ترجع إلى قيمة الموضوع أو الغرض الذي يخدمه، فإذا كان هذا الموضوع، هو اللائق بالإنسان بما هو إنسان، كانت القوة المبذولة في سبيله خيرة ممدوحة، وإذا كان معارضاً لماهية الإنسان، كانت القوة تمرد أحمق"[3].

إن نيتشه غالى كثيراً في فلسفته الأخلاقية، فنحن لا نقول بعدم أهمية القوة، فهي مطلب كثير من الفلسفات. ولكن: لماذا مغالاته في وجوب كون القوي أكثر قسوة وشراً وبطشاً. إن الأقوياء أنفسهم على مستوى التاريخ، كثير منهم رشد استخدام قوته، واستخدمها لمنفعة أنفسهم ومجتمعاتهم.

---

١ - السابق .

٢ - زارا ص١٨٦.

٣ - تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤١١، ٤١٢.

والقوة هذه كم تمثل في عمر فرد نوع الإنسان. إن الإنسان يمر بثلاث مراحل؛ الطفولة والصبا: ويكون فيها ضعيفاً. الشباب والرجولة، وفيها يكون فتياً. الشيخوخة والهرم: ويكون فيها ضعيفاً. إذن فترة قوة أقوى الأقوياء "السوبرمان" مثلاً، الذي يتحدث عنه، هي أقل فترة في حياته[1].والله تعالى يقول: (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) [2].

وما الذي يمثله هذا الإنسان مهما كانت قوته، بجانب باقي خلق الله تعالى في ملكوته، من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وأرض، وسماء، ورياح، وأمطار؟ وهل يقف أقوى الأقوياء في وجه الريح ؟

إن المجتمع المتفوق الذي نادى به نيتشه، لم يرق إلى المجتمع الربي الجاهلي قبل الإسلام " فقد تعاقدت قبائل قريش، وتعاهدوا، على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم، ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه، حتى ترد إليه مظلمته. وسمى ذلك بـ " حلف الفضول"، وقد شهده الرسول صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة "[3].

الإنسان المتفوق "السوبرمان"

بعد ما رفض نيتشه الفلسفة الأخلاقية، وأنه لا يوجد خير وشر، بالمعنى الخلقي المعروف لدى العامة، بين أن غاية الإنسان، لن تكون هي الوصول إلى أمر تحدده القواعد الأخلاقية المتعارف عليها، والتي رفضها، بل تكون غاية الإنسان، في اكتساب مزيد من السمو والارتفاع والعلو في الحياة، حتى يصل إلى الإنسان المتفوق.

يتحدث نيتشه كثيراً عن الإنسان المتفوق أو المتميز هذا في كتابه: "هكذا تكلم زرادشت" ويشير إليه من بداية الكتاب. وهذا الموقف منه

---

١ - راجع: المجتمع المثالي ص٤٣٦.

٢ - سورة الروم الآية ٥٤.

٣ - المجتمع المثالي ص٤٣٧.

عودة إلى الفلسفة والعلم بعد أن بعد عنهما، ولجأ إلى الفن.

ويدعي نيتشه أن فكرة الإنسان المتفوق، فكرة فطرية غريزية في الإنسان "إن ما فطرنا عليه، هو أن نخلق كائناً يتفوق علينا، تلك هي غريزة الحركة والعمل. وكما أن كل إرادة ، تستلزم افتراض هدف لها، هكذا يدعو وجود الإنسان، إلى افتراض كائن لم يوجد بعد، وهو هدف وجود الإنسان نفسه.

إن في الهدف مستقراً للحب والاحترام، وفيه مكمن للشوق، ومنه تنبعث رؤى الكمال"(١).

ولا أدري من أين أتى نيتشه بأن فكرة المتفوق هذا أمر فطري؟ ولم يتفق على هذا العقلاء على مر العصور، ولم ينزل بهذا كتاب سماوي. بل إن القرآن الكريم يبين أن الإنسان بدأ أفضل مما هو عليه خلقيا وبدنيا يقول تعالى: " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين"(٢).

ويرى نيتشه أنه بناء على ما سبق فإنه يجب عدم التسوية بين الناس، وعدم الإبقاء على المتقهقرين. يقول : " لا أجد فائدة من العمل على إيجاد المساواة بين الناس. بل أدعو بعكس ذلك، إلى تقوية الفروق، وتعميق المهاوي لإلغاء المساواة، وخلق الرجال الأشداء، وبهذا يولد الإنسان المتفوق. وما نقصد أن تصير الإنسانية إلى حالة يتسلط المتفوقون فيها على المتقهقرين . بل يجب أن تبقى الفئتان مفترقتين قدر المستطاع ؛ فلا تهتم إحداهما بالأخرى، فيستتب الأمر"(٣).

أقول: وكيف يوجد مجتمع فيه طائفتان مفترقتان، ويكون بينهما انسجام أو وئام؟ إن ذلك أدعى للتطاحن والحرب والخلاف.

يرى نيتشه أن الغرض أولاً من وجود الناس هو الإنسان المتفوق، فغاية الإنسانية هي الإنسان الأعلى، لا كافة الناس. فلا وجود لما يسمى

١ - زارا ص٢٨٤.

٢ - سورة التين.

٣ - زارا ص٢٨٥.

بالإنسانية، فهي لفظ مجرد، وكل ما يوجد هو مجموعة من الأفراد. فلو لم يوجد الإنسان الأعلى لكان خيراً للجميع أن يفنى(١).

والحديث عن الإنسان المتفوق أخذ مساحة كبيرة من كتاب نيتشه السابق ذكره فتحدث فيه حديثاً مستفيضاً عنه وعن صفاته فهو: " من الأرض كالمعنى من المبني. فلتتجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه الأرض، وروحاً لها "(٢).

ويقول: " أتعلمون من هو الإنسان المتفوق؟ . إن هو إلا ذلك المحيط، تغرقون احتقاركم في أغواره. وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة؟ لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم، بعد أن استحال شرفكم ذاته، كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز. لقد آن لكم أن تقولوا: ما يهمني شرفي، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور، في حين أن على الشرف أن يبرر الحياة نفسها.

لقد آن لكم أن تقولوا : ما تهمني القوي العاقلة فيَّ ، إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد، وما هي الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور.

لقد آن لكم أن تقولوا: ما تهمني فضيلتي، فإنها لم تصل إلى الاستغراق، وقد أتعبني خيري وشري. وما هي إلا مسكنة وقذارة وغرور.

لقد آن لكم أن تقولوا: ما يهمني عدلي، إن العادل يقدح شروراً ولما اشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا: ما تهمني رحمتي، أفليست الرحمة صليباً يسمر عليه من يحب البشر. ورحمتي لما ترفعني على الصليب. أقلتم مثل هذا وناديتم به؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله – إن من يرفع عقيرته إلى السماء، إن هو إلا غروركم لا خطاياكم ، إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم. أين هو

١ - راجع : قصة الفلسفة الحديثة ص٥٣٧.

٢ - زارا ص٦.

اللهب الذي يمتد إليكم ليطهركم؟ أين هو الجنون الذي يجب أن يستولى عليكم ؟ هأنذا أنبئكم عن الإنسان المتفوق. إن هو إلا ذلك اللهب، وذلك الجنون"[١]. فكان الشرف، والعقل، والفضائل، والعدل، والخير والشر، والرحمة وغير ذلك لا تهم الإنسان بل هي أشياء يجب أن يتطهر منها الإنسان، ومن يطهره منها هو الإنسان المتفوق.

فالإنسان ما هو إلا وسيلة ومعبر وممر لقدوم المتفوق، ويجب على الناس أن تعمل على وجوده "أحب من يعيش ليتطم. ومن يتوق إلى المعرفة، ليحيا الرجل المتفوق بعده، فإن هذا ما يقصد طالب المعرفة من نواله. أحب من يعمل ويخترع، ليبني مسكناً للإنسان المتفوق، فيهيئ ما في الأرض من حيوان ونبات لاستقباله ... ما أنا إلا منبئ بالصاعقة، أنا القطرة الساقطة من الفضاء. وما الصاعقة التي أبشر بها إلا الإنسان المتفوق "[٢].

ولكن : لن يظهر الإنسان المتفوق ما دام الناس متمسكين بصفاتهم وأخلاقهم "الحق أقول لكم: لن يخرج من الإنسان كوكب وهاج للعالم، حين تزول بقية السديم من نفسه، وهذا السديم لم يزل فيكم "[٣].

والأمور الحياتية مثل القصاص من المجرمين، يجب أن تكون أيضاً وصولاً للمتفوق " ليكن قصاصكم أيها القضاة، رحمة لا انتقاماً، وإذا ما حكمتم بالموت، فلتكن غايتكم تبرير الحياة. لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلوه،بل يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالإنسان المتفوق. وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم "[٤].

والإنسان المتفوق هذا سيأتي من المنفردين المنعزلين عن رعاع الناس "إنكم في عزلة عن العالم أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم

---

١ - زار ص٧.

٢ - السابق ص٩٢٨

٣ - زارا ص١٠.

٤ - السابق ص٢٩.

لأنفسكم اليوم، ومن هذا الشعب سيولد الإنسان المتفوق"[١].

وبظهور المتفوق يفر الحكماء والعلماء، ولا حاجة لهما. "فإذا ما لاح الإنسان المتفوق بصلاحه، أورثكم خوفاً ورعباً، فإنكم أيها الحكماء والعلماء، ستولون الأدبار، إذا ما لفحتكم الحكمة المشعة على الإنسان المتفوق في غبطته وعريه"[٢].

ويفرد نيتشه حديثاً طويلاً مستفيضاً في كتابه سالف الذكر، تحت عنوان: "الوصايا القديمة والوصايا الجديدة" . ولعلنا نلمح من أول وهلة في العنوان، استبدال الوصايا والتعاليم القديمة التي جاء بها الأنبياء، وبخاصة المسيحية، بوصايا وتعاليم جديدة، بدأ هو في إعدادها. كما يجب أن يحل الإنسان المتفوق مكان الإنسان العادي، الذي هو بدوره معبر لمرور الإنسان المتفوق عليه.

---

١ - زارا ص٦٤.

٢ - السابق ص١٢١

يبدأ نيتشه حديثه على لسان زارا، بأنه جالس بين ركام ــ ولننعم النظر في هذا التعبير ــ الألواح القديمة المحطمة، والألواح الجديدة التي لم يستكمل كتابتها بعد. فالعالم حتى عصره قد نشأ على افتراضات قديمة بالية، ومنها أنه عرف حقيقة الخير والشر، وركن إلى معرفته الخاطئة هذه، ونبه زارا الناس إلى خطئهم هذا، وأن الخير والشر لا يعرفه إلا المبدع فقط ــ يقصد نفسه ــ والمبدع هو الذي يعرف حقيقة الشئ، ويضع وسائل وغايات للناس للوصول إليها. " وأمرت الناس بأن يهدموا كل قديم، وأن يقفوا أمام كل عقيدة هرمة، ضاحكين مستهزئين بمعلميهم وقديسيهم وشعرائهم ومخلص عالمهم. وأمرتهم بأن يهزأوا بصرامة من حكمائهم"[٣].

وحتى يصل إلى المتفوق، لابد من استبدال الألواح القديمة بألواح جديدة. وأولى وصايا اللوح الجديد "لا تدار قريبك" ؛ لأن الإنسان معبر

---

٣ - السابق ص ١٦٦، ١٦٧.

يجب علينا اجتيازه للتفوق عليه. ولا شك أن نيتشه يقصد من وراء ذلك جعل هذه الوصية في مقابل وصية اللوح القديم القائلة "تحب قريبك، وتبغض عدوك "[١].

والوصول إلى هذه الوصية الجديدة يتحقق بالتفوق. "تفوق على نفسك في ذات قريبك، فلا تدعه ينيلك حقاً بوسعك أن تأخذه اقتداراً. فإن ما تفعله لا يبادلك إياه أحد؛ لأن ليس من مكافأة في العالم، ومن لا قبل له بحكم نفسه، وجبت الطاعة عليه"[٢].

فالشئ لابد أن يكون له بدل ومقابل. والرعاع ــ القطيع البشري ــ، هم الذين يعيشون ويأخذون من غير أن يبذلوا شيئاً. أما النفوس النبيلة، فهي تأنف أن تأخذ شيئاً بلا بدل.

وهناك ضريبة يدفعها كل صاحب رأى جديد، حر، جرئ. قد تكون حياته ثمناً لجرأته. ويهيب نيتشه بأصحابه ومن يؤمن برأيه، أن يقبل هذا طيعاً. "كل طليعة تُضحَّى أيها الأخوة، وهل نحن إلا طليعة منذرة، تنزف جراحنا دماً في هيكل الأسرار، وتقدَّم محرقة يذوب لحمها تمجيداً للأصنام القديمة. إن خير ما فينا لم يزل رطيبا، وذلك ما يهيج شهوة الأشواق الهرمة، فلحمنا طري، وجلودنا جلود حملان، فكيف لا تثير جشع الكهان في هياكل الأوثان ؟. إن كاهن الأوثان الهرم، لم يزل يسكن ذاتنا الخفية، وهو يتهيأ لإقامة وليمة، يبتلع فيها خير ما فينا، فكيف تسلم الطليعة أيها الأخوة من أن تصبح ضحية وقرباناً. ولكن: بهذا تقضي مهمتنا، وأنا أحب من لا يتمسك بالبقاء، ومن يتوارون أرفقهم بكل عطفي؛ لأنهم يذهبون إلى الجهة الأخرى ... إن الضمير الشامل قد نشأ حتى اليوم قرب الضمير الشرير، فهيا أيها الأخوة إلى تحطيم الألواح القديمة، إذا كنتم تفتشون عن مبدأ المعرفة "[٣].

١ - انجيل متى . الإصحاح السادس والسابع.

٢ - زارا ص١٦٩.

٣ - السابق ص١٦٩، ١٧٠.

ثم يأتي نيتشه على وصيتين من وصايا العهد القديم، وهما : "لا تسرق، ولا تقتل"[١]، ويفندهما ويبين أن هاتين الوصيتين على الرغم من أنهما كانا لهما أثرهما في الماضي، إلا أنهما تتعارضان مع طبيعة الحياة، وبالتالي فهذه الوصية التي تأمر بعدم القتل، هي قتل لطبيعة الحياة. يقول نيتشه: "تلك كلمات كانت مقدسة في غابر الزمان؛ إذا سمعها إنسان جثا على ركبتيه، وأحنى رأسه وخلع نعليه، غير أني أسألكم فأجيبوا : هل وجد في الدنيا لصوص وقتلة، أوفر سرقة وأشد فتكاً ممن استفزتهم هذه الكلمات المقدسة؟ أفليست السرقة والقتل من طبيعة الحياة نفسها؟ وهل كان تقديس هذه الكلمات النافية إلا قتلاً لحقيقة الحياة؟ أكان القصد من مغالطة الحياة والردع عنها إذاً دعوة في سبيل الموت والعناء؟. أي إخوتي: حطموا هذه الألواح القديمة ولا تترددوا "[٢].

والوصية الجديدة من وصايا نيتشه، ألا ينظروا إلى الخلف، بل إلى الأمام. لا إلى الآباء والأجداد، بل إلى الأبناء، الذين يظهر فيهم الإنسان المتفوق. "إنني أوليكم النبل الجديد أيها الأخوة، عندما أقتضى منكم أن تبدعوا وتعلموا وتلقوا بذوركم لآتي الزمان ... لن يكون حسبكم بعد الآن شرفاً لكم ، بل الهدف الذي تتجهون إليه. إن شرفكم كامن في إرادتكم، وفي الخطوة التي تندفعون بها إلى التفوق على أنفسكم واجتياز حدودها. ذلك هو شرفكم الجديد... ليس شرفكم أيضاً في انتسابكم إلى أجداد قذف بهم روح يدعونه روح القدس إلى أرض الميعاد، إلى الأرض التي لا أجد فيها ما يحمد. وهل تحمد تربة أنبتت أسوأ الأشجار، عود الصليب... عليكم أن تنفوا أنفسكم من جميع البلدان والمواطن التي سكنها أجدادكم، لا تعلقوا قلوبكم إلا على أوطان أبنائكم ، وليكن هذا الحب حَسَبَكم النبيل

١ - الوصايا العشر من و صايا العهد القديم.

٢ - زارا ص١٧١.

الجديد، تلك هي الأوطان التي لم تطأها قدم بعد وراء البحار السحيقة. وأنا آمركم بنشر شراعكم للتفتيش على مراسيها. عليكم أن تكفروا أمام أبنائكم عن ذنب تحدركم من آبائكم، وبغير هذه الكفارة لن تنقذوا الماضي"[١].

وأيضاً : لا تؤخذ حكمة من حكيم ؛ لأنها انعكاس لما يراه في هذه الدنيا. "احذر حكمتك لأنها هي أيضاً من هذه الدنيا، وعليك أن تكتبها، وأن تنحرها نحراً؛ لأنك بذلك تتعلم أنت أيضاً الزهد بهذا العالم. أي إخوتي: تقدموا إلى هذه الألواح القديمة، ألواح وصايا الأتقياء، وحطموها تحطيماً، بل اقضموا بأسنانكم هذه الوصايا، فلا تتفوه شفاهكم بها؛ لأنها كلمات المشتغلين بالحياة "[٢].

وفي رحلة بحث زار عن الإنسان المتفوق، يذهب ذات مرة إلى قمة الجبل، ويقابل عرافاً سبق الالتقاء به، ونزل العراف بضيافته، وقال له العراف: " إن كل الأمور متشابهة ، ولا شئ يستحق العناء؛ لأن لا معنى للوجود والحكمة خاتقة قاتلة"[٣].

ولعل في هذه العبارة من نيتشه على لسان العراف، ما يدل على صعوبة الوصول إلى هذا المدعو بالمتفوق.

وفي أثناء حديثهما ، يسمعان صوت صخب وهدير، وفيه صوت استنجاد، يصرخ به إنسان. فقال زارا: مالي ولمدد الناس، فإن آخر خطيئة قدرت عليه هي الرحمة. فقال العراف: إن الصوت المستغيث هو صوت الإنسان الراقي يناديك مستنجداً. وقال زارا: " ... هأنذا ذاهب إلى مصدر صوت الاستنجاد في هذا الغاب؛ لأفتش على الإنسان الراقي، فلعله معرض للخطر بين الوحوش الضارية "[٤].

ويجب على المتفوق أن يتحلى بالشر، فإنه خير ما يجب أن يكون

---

١ – السابق ص١٧٢، ١٧٣.
٢ – زارا ص١٧٥.
٣ – السابق ص٢٠٤.
٤ – السابق ص٢٠٦.

فيه. "إن الشر أصبح خير ما في الإنسان من قوة. فعلى المرء أن يزداد ارتقاءً في خيره، وفي شره أيضاً. هذا هو تعليمي أنا. فإن أعظم شر إنما هو أعظم خير للإنسان المتفوق"[١].

والوصول إلى الراقي بالانتصار على الذات. " كل فضيلة وكل انتصار على الذات، ليسا إلا تمهيدا لطريق من سيسود[٢].

وعلى الإنسان الراقي بصفته مبدعاً تنظيم جماعة الراقين، وتثقيف من سيئول الحكم إلى أيديهم يوماً ما"[٣].

ويستمر نيتشه في بيان من هو المتفوق؟ وفي تعليمه له. "لا تطلبوا شيئاً يفوت قواكم إدراكه، فمن طلب ما لا طاقة له به، فقد كذب نفسه "[٤].

ولا شك أن هذا الكلام يتعارض معه هو. فبنيته وأحواله لا يتفقان مع ما طالب به، ومع ما قاله هو في مفكراته التي ألحقت بالكتاب " ما دمنا في حاجة إلى العمل والقيادة، فليس لنا أن نستغني عن الشخصية الأدبية، ولابد لنا من الرضا بالواقع؛ لأن القائد لا يسير إلى ما وراء هدفه، إذا هو لم يجد لذة في عمله"[٥].

ويكمل نيتشه نصه السابق "كونوا على حذر من طلاب العظائم أيها الرجال الراقون ... تمتعوا بالحزم أيها الراقون، يا رجال الشجاعة وحرية الضمير. فهذا الزمان زمان العامة " .

أعرضوا عن كلمة " من أجل" ، وتناسوها أيها المبدعون ؛ لأن فضيلتكم تتوقف على ألا تفعلوا شيئاً من أجل أحد، وبسبب أحد، أو لأية علة. أصموا آذانكم دون هذه الأدوات الكاذبة. إن العمل من أجل القريب فضيلة صغار القوم، وقد جرى بينهم القول بالتبادل، وبأن إحدى اليدين تغسل الأخرى. ومثل

---

١ – السابق ص٢٤٢.
٢ – السابق ص٢٨٠.
٣ – السابق ص٢٩٣.
٤ – زارا ص٢٤٣.
٥ – السابق ص٢٧٧.

هؤلاء لا حق لهم بأتانيتكم، ولا قوة لهم على الاتصاف بها. ..

إياكم وممارسة الفضائل بما لا طاقة لكم به. ولا تكلفوا نفوسكم ما يستحيل حكماً ... احذروا أن تدخلوا أية قداسة على رذائل آبائكم ـ المسيحيين ـ فمن العبث أن يطالب بالعفة، من تمرغ آباؤه بالنساء، وكرعوا الخمر، والتهموا لحم الخنزير... أعرضوا عن أشجان العامة وأحزانهم "[1].

والجدير بالذكر أن الذين خاطبهم نيتشه بالتفوق، هم من قابلهم في طريقه من الساحر، والملكين، والصياد، وخيال زارا، والحمار، ورئيس الأحبار، والمسافر، وقاتل الإله المسمى أقبح العالمين. كل الناقمين على الحياة البشرية، وكأنهم هم المتفوقون، أو يحملون داخلهم بذور التفوق، أو يأتي منهم الجيل المتفوق.

ولأن الدين متأصل في نفوس الناس، وفكرة الإله متأصلة في قلوبهم، فإن المجموعة التي دعاها زارا بالمتفوقين ـ المجموعة السابقة ـ والذين نزلوا عليه بدأوا يبحثوا عن إله يعبدونه وإن أخطأوا الهدف، فقد عبدوا "حمارًا"، وأخذوا يثنون عليه، حتى قال رئيس الأحبار عندما سأله زارا عن سبب عبادتهم له "عفوك يا زارا، إنني أعرف منك بأمور الله. ومن الحق أن أكون هكذا. وخير لنا أن نعبد الله في حمار من ألا نعبده مطلقاً ـ تمعن في كلمتي هذه أيها الصديق العظيم، يتضح لك أن فيها كثيراً من الحكمة " وقال آخر: "إن الإله القديم قد بعث ، فقل ما تشاء يا زارا، وموت الإله عقيدة لا ترتكز على شئ "[2].

ولكن زارا خاطبهم، فعادوا إلى موقفهم مرة ثانية . وظهر أسد ـ لعله إشارة إلى قدوم المتفوق ـ فزأر ، ففر من كان معه. فقال زارا: لقد اقترب أبنائي. ثم هتف بعد ذلك قائلاً : " لقد كان للرحمة زمانها. أية

١ - زارا ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨.

٢ - زارا ص٢٦١.

أهمية بشهداتي ورحمتي. ما أنا بطالب سعادة، إن ما أسعى إليه هو المهمة التي وضعتها نصب إرادتي. والآن : وقد جاء الأسد، فقد اقترب زمان أبنائي. أما أنا فقد بلغت النضوج، ودانت ساعتي"[1].

ويحدد نيتشه بعض ضوابط الحياة ، للوصول إلى مجتمع التفوق، مجتمع العمالقة. ويتكون من عناصر مختلفة.

١ـ **الحاكمون**. وهم من لا يتوقون إلا إلى الصور التي يبدعونها؛ لأنهم غزيروا المادة ، مطلقون، يتفوقون على ما هو كائن.

٢ـ **المطيعون**: وهم المتحررون الذين يجدون سعادتهم في الحب والاحترام، ويدركون معنى الرقي، وعليهم أن يتجهوا بالتأمل إلى إلغاء ما فيهم من عيوب.

٣ـ **المستعبدون**: وهم الطبقة المستخدمة ، وعليهم تأمين رغد العيش، وإيجاد الرحمة بين أفرادها[2] وهذا الكلام إن كان يقصد به كيفية الوصول إلى هذا المجتمع، فقد اعتمد فيه كلبنة أساسية من لبناته على المستعبدين والضعفاء. فلا يمكن الاستغناء عنهم. وإن قصد به تكوين نسيج مجتمع العمالقة، فقد تشكل منهم، وأصبح فيه الضعفاء جزء منه لا يمكن القضاء عليه.

ويقول أيضاً محدداً هذا المجتمع: " إن الأهداف الاجتماعية، ترجع بالإنسان القهقرى، فهي توجد طبقة عاملة، وتخلق نوعاً من الناس، لابد من عبوديته في المستقبل "[3] وهذا تناقض مع ما مضى.

ويقول: " ليس من ظلم أروع من حق المساواة بين الجميع؛ لأنه يقيم نظاماً ينزل الإرهاق الأشد بأهل الرقي[4]

١ - السابق ص٢٧٢.

٢ - الملحق ص٢٨٠.

٣ - السابق ص٢٨١.

٤ - السابق ص٢٨١.

إحلال الإنسان المتفوق محل الإله

إذا كان الإله قد مات، ولم يعد هناك إلهاً، فإن نيتشه يرى أنه لابد من أن يحل مكانه الإنسان المتفوق " السوبرمان" ، وهو الذي يدبر شئون الناس. ويفعل ما فيه صلاحهم.

ونصوص نيتشه في هذا الصدد كثيرة جداً، نجتزئ منها بعضها. يقول: "لقد كان الناس يتلفظون باسم الله، عندما كانوا يسرّحون أبصارهم على شاسعات البحار. أما الآن : فقد تعلمتم الهتاف باسم الإنسان المتفوق.

إذن : أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً، فليس لكم إلا إيجاد الإنسان المتفوق. ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الإنسان، ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباءً وأجداداً له، فليكن هذا التحول خير ما تعملون "

إن الله افتراض، وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور. فهل تستطيعون أن تتصوروا إلها ؟. فاعرفوا من هذا إن واجبكم هو طلب الحقيقة، فلا تطمحوا إلى ما لا يبلغه تصور الإنسان وبصره وحسه. أمسكوا بتصوركم كي لا يتجاوز حدود حواسكم ...

على من يطلب المعرفة، ألا يتورط في ما يريده العقل من المعميات. لسوف أفتح لكم قلبي، فلا تخفى عنكم خافية فيه فأقول لكم: لو كان هناك أرباب، أكنت أتحمل ألا أكون ربا ؟.

إذن : ليس في الكون أرباب . لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة، وها هي تستخرجني الآن ... أفليست من الشر والأفتيات على الإنسانية، كل هذه التعاليم، تقييم الواحد المطلق، الذي لا يناله تحول ولا تغير"[1].

إن الإله كالتمثال الذي يجب تحطمه، حتى يصل الإنسان المتفوق الذي يحل مكانه " لقد تجلى بهاء الإنسان المتفوق لعيني في هذا الخيال الطارق، فما لي وللآلهة بعد" [2].

---

١ – زارا ص٧١– ٧٣.

٢ – السابق ص٧٤.

وهناك نص يحدد فيه نيتشه صلاحيات الإنسان المتفوق، ودوره في المجتمع، وأنه يحل محل الإله، وشرع من الأديان ما يكون صالحاً للناس، ويقضي على الضعفاء الذين لا يصلحون للمجتمع. "إن تعاليم زرادشت قد وجهت إلى الطبقة المعدّة للسيادة في آتى الزمان؛ لأن على من سيحكمون الأرض، أن يقوموا مقام الآلهة؛ ليخلقوا في الطبقة المحكومة، الثقة التامة الأصيلة. فعليهم أولاً أن يمهدوا سبل السعادة لمن هم دونهم، بتضحية لذاتهم وراحتهم، وعليهم أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة، بالقضاء عليهم دون إمهال، ثم ينشرون أديان وطرائق تتوافق وكل حلقة من سلسلة المجتمع"[1].

مناقشة : لا شك أن آراء نيتشه في حلول الإنسان المتفوق محل الإله، ورأيه في الإله، فيه من التخليطات والتخبطات ما لا يخفى.

---

١ – مفكرات نيتشه. ص٢٨٢.

فهل الإله خالق أم مخلوق؟ وهل المخلوق يكون إلهاً ؟ وكيف يكون واجب الوجود؟ وهل هذا الإله يكون محسوساً ؟ وهل ننكره لمجرد أنه لا يرى؟ ولا يقع تحت دائرة الحس ؟

إن الكثير من الأشياء لا ترى، ولا تقع تحت دائرة الحس، ولا يستطيع أحد أن ينكرها، والملاحدة أنفسهم يقرون بهذا. مثل: الكهرباء، والمغناطيس، والأثير، والإلكترونات، وروح الإنسان التي بين جنبيه. فلا يسوغ لأحد أن ينكر هذه الأشياء.

وهل يصل الإنسان إلى أن يكون رباً ؟ إن هذا الكلام لا يقول به ولا يتصوره عاقل وهل يريد نيتشه تعميم وفرض هذا الرأي الباطل على الناس؟.

إننا إذا استقرأنا تاريخ المؤمنين بالله ، والمنكرين له، لوجدنا أن المنكرين لوجوده كانوا لا ينعمون بهدوء نفسي أو راحة أو طمأنينة. وانتهت حياتهم – غالبا – إما بالجنون، أو بالانتحار، ونيتشه ذاته

خير مثال على هذا. وصدق الله العظيم إذ يقول: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) [١].

كما أن وجود واحد مطلق، يحقق معنى الألوهية، وكذا خضوع الجميع إليه، والحس شاهد بهذا. فلو كان هناك إلهان في الكون لأدى هذا إلى فساد الكون (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) [٢]. (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) [٣]

١ - سورة طه الآيات ١٢٤-١٢٧.

٢ - سورة الأنبياء الآية ٢٢.

٣ - سورة المؤمنون الآية ٩١.

الأولاد من أجل القوة والتفوق فقط

بين نيتشه أن من يريد أن يتزوج، ويريد له أبناءً، لا يكون هذا إلا لأجل القوة والتفوق فقط، وذلك حتى يتفوق الولد على والديه.

ويوجه نيتشه حديثه إلى شاب مقبل على الزواج، فيقول له: " أنت في مقتبل العمر، وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد. ولكن قل لي: هل أنت الرجل الذي يحق له هذا التمني؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه، الحاكم على حواسه، السائد على فضائله؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان، أو خشية منفرد، أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه؟ ... ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى فوق... ما الزواج في عرفي إلا اتحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علة في وجوده. فالزواج حرية متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة "[٤].

٤ - زارا ص٥٦، ٥٧.

ويرفض نيتشه الزواج المتعارف عليه، الذي يجمع بين اثنين برباط الدين، الذي أحل الله به بين الزوجين، ويشن حملة على هذا الزواج، الذي يعتبر من يقوم به من الأغبياء، وعلى الإله الذي شرعه " ما يدعوه الدخلاء الأغبياء زواجاً، فأمر أحار في تعريفه، فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسم اثنان، ودنس يتمرغ به إثنان، ولذة بائسة تتحكم في اثنين.ولكن الدخلاء يرون في مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء. وما أنا بالمرتضى بمثل هذه السماء، سماء الدخلاء أطبقت شباكها عليهم، تباً لها، وسحقاً لمثل هذا الإله، الذي يتقدم متراجعاً ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما"[١].

يجب أن يكون الزواج طريقاً للوصول للمتفوق. وهذا الزواج هو ما يوافق عليه ويباركه نيتشه. "في كأس أرقى حب مرارة، لابد لكم من تجرعها. وهذه المرارة هي التي تنبه فيكم الشوق إلى الإنسان المتفوق، وتلهب فيكم الظمأ إليه. أيها المبدعون: إذا كان هذا الظمأ هو الذي يدفع بك إلى طلب الزواج يا أخي، وإذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسهم نحو الإنسان المتفوق، فإنني أقدس إرادتك. وأقدس زواجك"[٢]

ولعل آراء نيتشه هذه في الزواج، انعكاس لقصور في ذاته تجاه النساء ــ كما سبق ــ ولا شك أن نظرته إلى طلب الولد من أجل القوة وللقوة ، تتعارض مع حياة نيتشه الصحية ــ كما عرفنا ــ ، وتتعارض مع المقاصد العليا للزواج في الدين من السكن والمودة والرحمة.

كيفية إيجاد الإنسان المتفوق "السوبرمان"

يرى نيتشه أنه يجب الإعداد لإيجاد الإنسان الأعلى، وأن يتم الإشراف على التربية، حتى ينشأ

١ - السابق ص٥٧.

٢ - السابق ص٥٨.

هذا الأعلى، ولا يترك الأمر فوضى في يد الانتخاب الطبيعي فقط ؛ لأن الطبيعة تنتصر دائماً للكثرة والعامة، على الصفوة الممتازة. فالطبيعة وحدها لا تختار الإنسان الأعلى، ويكون اختياره بتطبيق علم إصلاح النسل "اليوجينية" أو ما يمكن أن يطلق عليه ويعرف في العصر الحاضر بـ "الهندسة الوراثية" وكذلك بأساليب التربية الجديدة ، التي ترفع الفرد وتسمو به .

ويتحقق ذلك بعدة خطوات :

أولا: عدم ترك الحرية للأفراد الممتازين، أن يتزوجوا من أي امرأة ممن يحبون، بل يجب أن تُختار المرأة كذلك، فليس مقبولاً أن يتزوج بطلاً مثلاً من خادمة، أو عبقري من بنات السوقة. فيجب أن يكون خير النساء لخير الرجال. والحب يترك لعامة ورعاع وحثالة الناس، فالزواج ليس للنسل، بل يجب أن يكون وسيلة للوصول إلى الراقي والسامي.

وفي نصيحة نيتشه لشاب مقبل على الزواج في مقتبل العمر، ما يدل على كيفية الوصول إلى المتفوق، وقد سبق بيان بعضها، وفيها أيضا: " ... إن ما أريده منك، هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد؛ إذ عليك أن تقيم الأنصاب إلى ما فوق مستواك. وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن متين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك؟ ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى ما فوق. فليكن عملك في حقل الزواج منصباً على هذه الغاية.

عليك أن توجد جسداً جوهرة أتقى من جوهر جسدك، ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها. فواجبك إذاً إنما هو إبداع من يبدع ... "[1].

فاختيار العنصر الطيب، هو اللبنة الأولى لبناء المتفوق. والفكر وحده لا يبني المتفوق "إن العقل وحده لا

١ – زارا ص٥٦، ٥٧.

يؤدي إلى النبل؛ بل إن العقل وحده ليحتاج إلى ما يرتفع به، فماذا نريد إذن؟ نريد الدم (سلامة العنصر)"[1].

الخطوة الثانية: لتكوين الإنسان الأعلى، لابد من تربيته وتنشئته في مدرسة تعد خصيصاً لذلك. مدرسة قاسية عنيفة. المقصد منها وصول تلاميذها إلى الكمال، ويكون ذلك بإلقاء الأعباء عليهم، من غير أن ينعموا بكثير من أسباب الترف. ويربي الجسم على القسوة، والتعذيب، حتى يقوى على تحمل التعب والبلاء في صمت.

ويتعلم هذا الإنسان في المدرسة قوة الإرادة، وكيف يأمر إرادته. وتمنع عن المدرسة الأفكار الفارغة عن الحرية التي لا طائل من ورائها، إلا إضعاف القوة الجسدية والخلقية.

وكذلك يجب أن يتعلم الطالب كيف يهزأ، ولا يعبأ بشئ ويرتفع عن مآسي الإنسانية، ويكون ذلك بتعليم الطالب كيف يضحك من كل قلبه.

١ – قصة الفلسفة الحديثة ص٥٣٩.

وإذا كانت المدرسة تعلم القوة وصولاً إلى المتفوق، فيجب كذلك ألا يكون في المدرسة عبادة ولا تنسك ولا زهد، ولا يكون فيها مجال للدين أو الإله.

يجب أن يكون المتفوق أسمى من الخير والشر، ولا يعبأ بكلام الناس من أنه شاذ خارج عن حدود وقواعد الأخلاق العامة.

والخير والشر بمفاهيم العامة، يجب أن تندثر. فما الخير إلا في الشجاعة والقوة، وما الشر إلا في الضعف. " لأن تكون شجاعاً فذلك خير. والخير هو كل ما يزيد الشعور بالقوة، وهو إرادة القوة، هو القوة نفسها. والشر هو كل ما ينشأ عن الضعف، هو الضعف"[2]

الإنسان الأعلى يجب أن يربى ويتدرب على المغامرة والحرب، وأن يترك السلامة، فهذا خلق العامة والدهماء. والحرب خير محض، حتى إن الثورة خير؛ لأن بها تظهر

٢ – السابق ص ٥٤٠.

قوة وعظمة الرجال. فمن فوضى الثورة ، ينبغ العظماء "[١].

ومقومات الأعلى: النشاط، والعقل، والكبرياء، على أن يكون هناك انسجام واتساق بينهم. وعلى القوي ألا ينساق لغرائزه وعواطفه. "وعلامة الإنسان الأعلى، أن يتخذ لنفسه غرضاً يسمو به فوق الناس، ويسلك في سبيل تحقيقه ما يشاء من الوسائل.

وواجب الناس، إذا كانوا يحبون الحياة، ويريدون أن يخطوا بها إلى الأمام، أن يروا في مثل هذا الرجل ضالتهم المنشودة، فإذا أخطأنا العظمة، فلنكن خداماً للعظيم، وأدوات لتحقيق غاياته"[٢].

وما حدث مع نابليون بونابارت تطبيق عملي لهذا الكلام.

وأما عن النظام الذي يجب أن ينشأ فيه الإنسان المتفوق، فإنه يجب أن يكون قائماً على النظام الأرستقراطي، الذي يعتمد على طبقة النبلاء والأشراف. أما النظام الذي يقوم ويعتمد على الرعاع والعامة، وهو ما يعرف بالنظام الديمقراطي، يجب أن ينمحي ويزول؛ لأنه يعد عودة إلى العصور المتأخرة المنحطة، المتمثلة في المسيحية.

وأول خطوات تحقيق النظام الأرستقراطي، والقضاء على النظام الديمقراطي، يكون بالقضاء على المسيحية، وإلغائها من مجتمع المتفوقين؛ لأن المسيح أرسى قواعد الديمقراطية يقول نيتشه: " لقد كان المسيحي الأول، في أعماق نفسه، ثورة على كل ضروب الامتياز. لقد عاش وجاهد في سبيل المساواة بين الناس في الحقوق"[٣]. أليس المسيح هو القائل: "من يكون عظيماً بين الناس وجب أن يكون خادمهم ". إن هذا الكلام يفسد أخلاق السادة، ولا يسود هذا الكلام إلا في عصور تدني الحكم، في عصور الضعف.

---

١ - راجع : قصة الفلسفة الحديثة ص٥٤٠.

٢ - السابق ص٥٤٦.

٣ - السابق ص٥٤٢.

وبنظرة تاريخية يتبين أن عصر سيادة أخلاق الضعف عصر المسيحية، وخاصة في أوربا. أما عندما غزاها الأقوياء المحاربون، أحيوا فيها الرجولة القديمة، وغرسوا في تربتها جذور الطبقات الأرستقراطية الحديثة، هذه الطبقات لم تكن تعمل بأخلاق الضعف هذه، ولم يكونوا مقيدين بهذه القيود الاجتماعية؛ لذلك سادوا في كثير من بلاد أوربا، وكونوا الطبقات الحاكمة في بعض بلادها مثل: المانيا، وانجلترا، وإيطاليا، وروسيا. وغيرها ــ كما سبق ــ .

فمقومات دولة الأقوياء تقوم على الشجاعة، والقوة، وفرض الإرادة على الغير. ومن يتطل في قيام الأنظمة الأخرى بما يسمي بنظرية "العقد الاجتماعي" ، ما هو إلا لغو ولغط، فالدولة تقوم على "جماعة من ضواري الرجال، وأعني بهم السادة الغزاة، يفدون في نظام حربي، وفي طبيعتهم قوة التنظيم، فيضعون مخالبهم المخيفة المروعة على قطعان السكان مع وفرة عددهم، دون أن يشعروا في ذلك بشئ من وخز الضمير. فهذه الجماعة المسيطرة هي أساس الدولة ولا صحة لذلك الحلم الذي يقال: من أن الدولة نشأت بتعاقد الأفراد، ماذا تجدي العقود عند من يستطيع أن يبسط سلطانه، وهو من خلق بطبعه سيداً وحاكماً، لا يعرف في سلوكه إلا العنف والقسوة"[١].

وفساد النظام الديمقراطي ، وعدم صلاحيته لمجتمع الأقوياء؛ لأنه يسمح لكل عضو فيه، أن يفعل ما يشاء، وهذا يؤدي إلى فك الترابط في المجتمع، وإلى الانحلال وزوال التعاون بين أفراده، ونشر الفوضى. ويؤدي أيضاً إلى سيادة الطبقة الدنيا والمتوسطة، والقضاء على التفوق والنبوغ، وعدم ظهور الأقوياء العظماء؛ لأنهم لا يذعنون لأنظمة الانتخابات القائمة في المجتمع الديمقراطي.

---

١ - قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٤٣ ، ٥٤٤.

وكذلك لا يصلح النظام الاشتراكي، الذي ينادي بالمساواة الاقتصادية بين الناس.

وأيضاً النظام الفوضوي، الذي ينادي بعدم وجود زعيم بين الناس لا يصلح بين البشر.

فلا مساواة بين الناس، فعدم المساواة وبسط القوي نفوذه على الضعيف، والكبير على الصغير هو نظام الحياة في الكائنات جميعاً. فالعالم قائم على الافتراس.

وكذلك لا يصلح المجتمع المالي، القائم على جمع المال؛ لأن أصحابه حرموا لذة التفكير العقلي، ولم يراعوا الآداب والفنون " أنظر كيف يصعدون!. إنهم كالقردة، يصعد بعضهم فوق بعض، إلى أن يجذبوا أنفسهم في الهاوية والوحل"[١]. والقتل في الحرب أفضل من الموت في العمل مع آلات تدر المال. ويجب أن يحال بين رجال الأعمال وبين الحكم؛ لأن رجل الأعمال ليس له من النظر الثاقب مثل ما للأرستقراطي.

وللوصول إلى المتفوق، لابد من نشر المذهب الطبيعي في الأخلاق، والذي بمقتضاه، يجب أن يعيش الإنسان وفقاً للطبيعة، ولا يكبح شهواته وأهوائه " يحقق الإنسان رغباته ، ويشبع شهواته من غير عائق، ويؤكد ذاته، ويسخر من التضحية وغيرها من الفضائل التي أقرتها الأديان والأخلاق التقليدية، وبذلك يمهد الطريق إلى السوبرمان"[٢] وهذا الكلام فيه أيضاً الكثير من التناقضات مع ما سبق من كلامه.

الرد على فكرة الإنسان المتفوق

رأينا فيما سبق الكثير من التناقضات، التي أوقع نيتشه فيها نفسه. وبعد أن طمح إلى وجود مجتمع للأقوياء، يقوم على أنقاض الضعفاء، وألا تأخذ الأقوياء رحمة ولا شفقة بهم. يعود ويهدم ما بنى عليه كلامه، فيقول: " إن العالم الذي

١ - قصة الفلسفة الحديثة ص١٥١.

٢ - أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص٤٠٨. ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨م.

يتفوق على الإنسانية، إنما يعود بها بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للأصاغر والمتضعين"[١] كيف هذا؟ ولماذا قال بوجوب القضاء عليهم أولاً؟

وعندما يوجد مجتمع الأقوياء كما يدعي، يعود إلى اقتباس بعض العبر، من الألواح القديمة، من الديانات التي أمر بالقضاء عليها؛ لتكون دستوراً لدنيا الأقوياء. يقول: " حذار من الطفرة في سلك الفضيلة، فعلى كل فرد، أن يسير في طريقه، وإن جنح عن مسلك الآخرين، فلا يطمحن إلى بلوغ الذروة وحده؛ إذ على كل سائر، أن يكون جسراً للمتقدمين، وقدوة للمتأخرين "[٢].

كيف يتسق هذا الكلام مع ما قاله من وجوب التضحية بالملذات للمتفوقين، من أجل إسعاد الأقل ، حتى وإن أدى إلى قتلهم "على أهل السيادة في الإنسانية المتفوقة، أن يمهدوا سبيل السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذاتهم وراحتهم، وعليهم أيضاً أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال"[٣].

ولا يخفى أن في هذا النص ما يدل على تناقض نيتشه في كلامه وأفكاره. فهذا النص ينقض آخره أوله.

ومن عنده الاستطاعة والمقدرة، لوضع مقياس القضاء على الضعفاء. لو طبق هذا المقياس قبل مولده، لما ولد، ولما وجد أبوه وأمه من قبل.

ثم إن وجود العلل في الجسم أمر طبيعي، مع كثير من الناس. كما أن هناك بعض الأمراض، قد تكون مستورة، وتظهر بعد ذلك وتكون سبباً في الهلاك. " أفليس في كل دارج على هذه الغبراء، علة أو علل كامنة في تكوين أعضائه، ستورثه الردى حين تدنو ساعته؟. أي جسم مهما ظهر لك صحيحاً، ليس فيه عضو هو أضعف الحلقات

١ - راجع : ص من هذا البحث .

٢ - راجع : ص من هذا البحث .

٣ - زارا ص

في سلسلة أعضائه؟ . وفي فراغ صناعته المحدودة انفصام العرى، وبداية انحلال العناصر في هيكله الفاني"[١].

كما أنه يستحيل عملياً، وجود هذا الكائن المتفوق عن طريق التربية البدنية الرياضية، فإن وجود إنسان قوي عن طريق الرياضة يكون ضخم الجثة مفتول العضلات، إلا أنه يكون من ناحية أخرى غالبا، غليظ القلب، جاف الطبع، بليد الفكر والتذوق والإبداع. كما أن وجود الإنسان بهذه الصفات فيه مخالفة للطبيعة، وتكليفها ما لا قبل لها به. هؤلاء "لا يصلحون لشئ في المجتمع؛ لأن الحيوية لا تتصرف من مختلف نوافذها الجسمية في آن واحد، دون أن تقبض على صاحبها، لتوقفه من سلم الارتقاء، على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط، فيكون منه لا الإنسان المتفوق، بل الإنسان التافه القصير الحياة، والقاصر في كل عمل يباشره. إن المجتمع لا يقوم من الوجهة العملية على أفراد يحاولون الإحاطة بكل شئ، فلا ينالون منها شيئاً "[٢].

ونحن نعرف أن بعض البلدان المتقدمة تدعي الحضارة المدنية قد طبقت نظام المدارس البدنية والرياضية والعسكرية منذ الصغر، والتي تعتمد على الأطفال اللقطاء ، الذين لا نسب لهم ، وتمسيهم بأسماء فيها شئ من العظمة ترى ما سلوكهم تجاه من يقابلونه ويحاربونه ؟ لا يخفى هذا على أحد.

إن في رأى نيتشه هذا اعتراض على إرادة وحكمة العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وكل إنسان مهما كان ضعيف البنية، خلق الله تعالى فيه مظهراً آخر من مظاهر القوة والتفوق. وقد يوجد ضعيف يفيد الناس، وترقي البشرية على فكره أكثر مما ترقي بقوة الأقوياء. وفي تاريخ العلم والعلماء والاكتشافات خير دليل على هذا.

---

١ - مقدمة المترجم أ : فليكس فارس ص

٢ - مقدمة فارس ص

وتفاوت الناس في الخلق والقوة، اختبار من الله تعالى، ليشكر المنعم عليها ، ويصبر المبتلى بفقدها، والصابر والشاكر جزاؤه عظيم كما نعلم. والآيات والأحاديث متضافرة على هذا.

وكما تختلف الناس في القوة البدنية، تختلف كذلك في القوى الروحية والنفسية. "إن من تبصر في أحوال الناس، وطرائقهم في الحياة، لابد له أن يسلم أخيراً، بأن لكل شخصية حياتها بماكمن في حوافزها، ولكل شخصية سماتها بما خفى من أدواء جسمها، وعلل إرادتها، وبما وراءها من مقدمات وحولها من نتائج. إن في الحياة مسالك خطتها الإرادة الكلية، وليس للإرادة الجزئية أن تتناولها بتحوير. فمصاعد الرقى للأرواح منتصبة من كل مسلك في عالم الظاهر نحو العالم الخفي، وما خصت العناية أقوياء الجسوم بالارتقاء.

ولرب صعلوك في نظر نيتشه، لا يصلح للحياة، ويجب أن يقضى عليه دون إمهال، تنفجر منه قوة لا تراها إلا البصائر النيرة. من لنا سبر الأغوار البعيدة القرار، لندرك سر التكامل في الذات والحكمة في حد الأشواط لكل روح لتقوم بقسطها من المقدور. ومن لنا بإدراك سر الضعف والقوة، وقد يكون الضعف في الجسم السليم، والقوة في العليل من الأجسام . إن لكل مخلوق، أن يبلو الحياة بما أعطى من ظاهر الضعف أو ظاهر القوة؛ لأن للصحة محنتها كما للمرض محنة، والأنفس الطامحة إلى مثلها العليا، سواء أكانت هذه المثل في هذه الحياة، أم في ما وراء الحياة إنما تتغذى من الجسم ناحلاً عليلاً، كما تتغذى منه مليئاً بالنضارة والصحة والبهاء. إن للحكمة العليا مقياسها في تقدير الجهاد الأكبر على كل نفس، ومن يدري في أية لحظة، وبأي مداد من قوة الجسد أو صفته تخط الروح الأسيرة آخر سطر من كتابها "[١].

---

١ - السابق ص ط.

إن ادعاء نيتشه بأن المتفوق لم يولد بعد، وأنه لم يوجد متفوق حتى عصره، في هذا سخرية واستهزاء، بكل الأقوياء والعقلاء والأسوياء، الذين ظهروا على مر التاريخ حتى عصره، بما فيهم الأنبياء، وحتى الأقوياء الذين أشاد بهم من أمثال الرومانيين، واليونانيين، والنبلاء. " إن الجيل الذي يلد العظماء لم يولد بعد. ولا يوجد رجل في هذا الزمان يمكنه أن يتفوق على ذاته، وكل ما بوسع الناس أن يفعلوه، في سبيل المثل الأعلى، هو أن يتشوفوا إليه؛ ليخرج من سلالتهم في مستقبل الزمان"[١].

كما أن الناس والأمم لن يستطيعوا ولو حرصوا على أن يمنعوا رجلاً معيناً من الزواج من امرأة أقل منه، أو امرأة من رجل أقل منها. وشواهد التاريخ خير دليل على هذا، وربما ترك بعض الملوك عروشهم لأجل من أحبوهم. فتطبيق ما قاله نيتشه في اختيار الأقوياء للقويات، أو خير الرجال لخير النساء، غير مستطاع تحقيقه في أرض الواقع.

إن اختيار الإنسان المتفوق، لا يكون بمقياس نيتشه، وليس بالضرورة أن يكون التفوق في البنية والقوة فقط، فالتفوق قد يكون في أمور أخرى مفيدة للمجتمع، وقد يكون إفادته للمجتمع أكثر من إفادة القوي له ــ كما سبق ــ .

وفي المودة والرحمة والسكن الذي عناهم القرآن، يكون التوافق أكثر من أي شئ آخر، وهذا ما يمكن أن يعبر عنه بالحب بين الزوجين القائم على الأمور السابقة. "إن الرجل الكامل أو الأقرب إلى الكمال، إنما هو ابن الحب الكامل. فالمحبة وحدها هي السبيل المؤدي إلى إدراك الحق والقوة والجمال"[٢].

وكأن نيتشه يريد نوعاً جديدا من الإنسان، يخرج من نوع الإنسان الحالي. وهذا الأمر مستحيل الوقوع.

---

١ - زارا صـ ي .

٢ - مقدمة فارس صـ ل .

فكل المخلوقات لا تستطيع ولا تملك أن تخرج عن حدود أنواعها التي حددها الخالق، مهما طالت الأزمان والدهور. وهذا بالضبط كمن يريد أن يخرج نباتاً من جماد ، وحيواناً من نبات، أو إنساناً من حيوان. وقد سبق إيراد قوله الذي يدل على استحالة ذلك، عندما قال: " لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم، أعرق من القرود في قرديته"[١]. فإذا كان الإنسان ــ كما يرى نيتشه ــ لا يستطيع أن ينسلخ عن أصله القردي، الذي وجد عنه ، فكيف يأتي المتفوق منه؟ وقد سبق إيراد نصوص أخرى تدل على ذلك.

وأيضاً : على فرض وجود هذا الإنسان المتفوق، ــ مع استحالته ــ فإن وجوده لن يدوم، بل سيعود الإنسان الصغير ــ الأصل ــ مرة ثانية " سيعود دوراً فدوراً إلى الأبد"[٢].

كما أن الرقة والرحمة والحلم، ليست أموراً شريرة مستهجنة، بل هي ما تتناسب مع طبيعة النفس البشرية، ومع طبيعة العقل الإنساني السوي.

بل إننا ندرك ونعرف جميعاً أن الحلم والرحمة، يحتاجان قوة وشدة من الإنسان، أكثر مما يحتاجه الإنسان وقت القسوة والعنف والغضب. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: (ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب)[٣].

" إن القسوة والغضب انقياد للغريزة الحيوانية الجامحة، على حين أن كظم الغيظ، أصعب من إعلانه، وأن الصفح أصعب من الانتقام. وهذا هو الخلاف الدائم بين الحسية والعقلية، بين مذهب لا يرى في الإنسان، سوى أنه حيوان راق، فيأخذ بأخلاق الوثنية القائمة على

---

١ - راجع صـ من هذا البحث.

٢ - زارا ص١٨٧.

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه ك الأدب باب الحذر من الغضب ٣٤/٨ مطبعة الشعب.

اعتبار القوة، والمقسمة البشر إلى قوي وضعيف. وبين مذهب يلحظ روحانية الإنسان قبل حيوانيته، فيرسم له أخلاق العدالة والمحبة "[١].

وظهور هذا التفوق على الرغم من استبعاد ظهوره، إلا أن هناك من الباحثين من يقول بإمكانية وجوده، ولكن من الطبقة الدنيا، من طبقة العبيد، لا من الأرستقراط أو السادة. " إن الإنسان الأرقى، أو ما فوق الإنسان، كما تصوره نيتشه، لن يظهر بوصفه امتداداً وارتقاء للفرد الأرستقراطي المنعزل، بل إن الشواهد كلها تدل ، على أنه سيظهر من المجموع، من أولئك الذين كان نيتشه يعدهم عبيداً لا سادة. والصراع الثقافي والأخلاقي والفني في عصرنا الحالي، لا يحمل شيئاً من آثار تنبؤات نيتشه، وإنما يسلك طريقاً لم يكن في مقدوره أن يتنبأ بها على الإطلاق "[٢].

١ – تاريخ الفلسفة الحدية ص٤١٢

٢ – زكريا ص٩.

وكلام نيتشه بعدم السيادة على العالم أخلاق العامة، هذا الكلام يكذبه الواقع، وأحداث التاريخ، فالدولة الإسلامية – على سبيل المثال – انتشرت في ربوع المعمورة ، وسادت بأخلاقها الحسنة، وحسن تعاملها مع غيرها، ولم تسد بالقوة ولا بالعنف ولا بالبطش.

والحروب والصراعات التي تنشأ عن مجتمع الأقوياء، ما تخلف وراءها إلا الدماء والخراب والمشوهين والعجزة، الذين لا يقدرون على مسايرة الحياة أو نفع أنفسهم، فضلاً عن ظهور المتفوق فيهم.

ولا يمكن الوصول إلى التفوق عن طريق الوحدة والانعزال عن المجتمع، ولا يكون الأقوياء في مدرسة منفصلة بهم؛ لأن التفوق لا ينال إلا بالانخراط في المجتمع " ففي الدولة المنظمة، يستطيع الفرد أن يسلك ألف طريق، إذا أراد سمواً وارتفاعاً. أما إذا انسلخ عن الجماعة وعاش منعزلاً، فلا سبيل

إلى الرقي. " وإذا عشت منفرداً، فإما أن تكون حيواناً أو إلهاً " – السياسة لأرسطو – وهنا يضيف نيتشه، الذي أخذ فلسفة السياسة عن أرسطو هذه العبارة: "وإما أن تكونهما معاً – أي تكون فيلسوفاً"[١].

وكيف ينال التفوق عن طريق الفلسفة، وقد عاب نيتشه على الفلاسفة، وعلى منهجهم الفكري.

أثر أخلاق القوة على المجتمع العالمي

لا شك أن أخلاق القوة هذه، أتت بنتائج مرذولة، وبعواقب وخيمة، على كل من حاول تطبيقها، وعلى المجتمعات التي وجدت فيها. وتاريخ الإنسانية يشهد بأن الفترات التي سيطر فيها منطق القوة، لا قوة المنطق أتت بنتائج سيئة . فماذا حدث من الاسكندر الأكبر عندما فرض سيطرته وقوته على ممالك العالم؟ وما الذي أحدثه الرومان، عندما سيطروا على العالم، وكانت لهم امبراطورية مترامية الأطراف؟ داسوا كل شئ، وأهلكوا كل شئ، ولم يقف ظمأهم وعطشهم للقتل عند حد، ولم يطفئ لهيب انتقامهم أي دماء.

وما الذي أحدثته البلاد الاستعمارية عندما احتلوا بلاد غيرهم؟ وقتلوا أبناءها ونهبوا ثرواتها.

وما الذي أحدثه هتلر عندما طبق نظرية القوة، التي نادى بها نيتشه. لقد أوقد حرباً استعرت أوارها، وأكلت الأخضر واليابس، وقضت على الملايين من البشر" هتلر الذي نزع عن قوسه في سياسته التي ترمي للعصبية البغيضة للجنس الآري، ولسيادة القوة في أبشع صورها "[٢]. وما النتيجة التي وصل

١ – قصة الفلسفة اليونانية . أحمد أمين وذكي نجيب محمود ص٢٦٢.لجنة التأليف والترجمة والنشر ط دار الكتاب المصرية . الطبعة الثانية . سنة ١٩٣٥م.

٢ – قصة الفلسفة اليونانية . أحمد أمين ذكي نجيب محمود. ص٢٦٢. لجنة التأليف والترجمة والنشر ط مكتبة دار

إليها هتلر؟ لا شئ. هل حقق ما كان يأمله نيتشه في فلسفة القوة ؟ .لا شئ.

إن تجربة هتلر هذه، تبين بما لا يدع مجالاً للشك، خطأ وسوء هذه الأخلاق الغاشمة الآثمة.

نيتشه نفسه تنبأ وأرهص بما ستحدثه أفكاره هذه من دمار وإبادة لبعض شعوب العالم، وهذا أمر طبيعي، في ظل انتشار أفكار هدامة كهذه. نقرأ معاً بعض النصوص التي أوردها نيتشه في هذا الصدد. يقول: " إن مكانتي الفلسفية مكانة مستقلة كل الاستقلال، على الرغم من كل شعور عندي بأني وريث آلاف من السنين عده . إن أوربا الحاضرة لا تعرف مطلقاً، أية أحداث هائلة يدور حولها وجودي كله، ولا بأية عجلة من المشاكل قد ارتبطتي. كما لا تعرف أن كارثة عظمى تتهيأ للحدوث أنا باعثها، وأعرف اسمها لكني لن أقوله أبداً " . ويقول: "أنا أعرف مصيري، فإن اسمي سيقترن به يوماً من الأيام ذكرى شئ هائل، ذكري أزمة لم يكن لها من قبل مثيل على ظهر الأرض، واصطدام عميق كل العمق بين الضمائر والعقول بعضها ببعض"[1].

ولعل في كلامه التالي، إشارة أيضاً إلى وقوع حروب تترتب على فلسفته. "فتنهض الوحوش الضارية، أي جنس الغزاة والسادة من بين رماد الناس يظهرون في شكل أقوى وأشد بطشاً، وأما الذين لا يطيقون فلسفتي فهم من الهالكين، ومن يرونها أعظم النعم فإن بيدهم مصير العالم "[2]. فمن يرد أن يتسيد العالم فعليه بمنطق القوة وفرض الرأى.

وكلام نيتشه الحماسي للشعب الألماني، وأن فيه من الصفات ما ليست في غيره، خلق شعوراً عاماً لديه بالتفوق والاستعلاء، وأنه يجب أن يسيطر على العالم" الشعب

---

١ - تاريخ الأخلاق ص٢٨٦.

٢ - بدوى ١١٨، ١١٩.

الكتاب المصرية . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٥م.

الألماني يمتاز بطبيعته برزانة وعمق، مما يفسح أمامنا الأمل في أن تنهض ألمانيا يوما لتخلص أوربا، إذ أن لهم من فضائل الرجولة، ما ليس للشعبين الإنجليزي والفرنسي، كما يتصفون بالمثابرة والجد والنشاط، مما أدى إلى تبحرهم في العلم، وإلى نظامهم الحربي. ولعله مما يلفت النظر أن ترى أوربا كلها قلقة من قوة الجيش الألماني... فلو أمكننا أن نوجد شيئاً من التعاون بين ألمانيا وروسيا، حتى يتحد ما لألمانيا من قوة التنظيم، عما في روسيا من الرجال والمواد التفل ؛ لأشرق عصر السياسة العظمى، فلا يعوزنا إلا أن نمزج بين الجنسين الألماني والسلافي، ثم نضيف إليهم أمهر الممولين من اليهود؛ لنكون سادة العالم. "[1].

والقوة تجعل لصاحبها ما يسوغه في استعمالها، بل تجعل القوة عملاً مقدساً، وحقاً عادلاً في استعماله، والتفوق بها على الغير. وهذا ما فعلته ألمانيا تأثراً بفكر نيتشه. وقد قام أحد الباحثين وهو "السيد رويسين" بعمل دراسة حول هذا الموضوع، ونشرها في مجلة "ما بعد الطبيعة والأخلاق"[2] تقوم على أن فكرة القوة وحدها، هي التي تمنح الواقع حقيته ، والقوة هي رمز الحق، والحرب تكون لا لأهداف. وبالتالي أدى هذا إلى القول بسمو ورفعة الشعب الألماني. والآلهة الأسطوريون كان يروق لهم انتصار القوي، ولا يحفلون بالعدالة، بينما "الحكيم كانون" لم يعني إلا بالعدالة وحدها. ففكرة القوة قديمة، كما أن الحروب في العالم وعلى مر التاريخ ما هي إلا تنفيذ لإرادة الآلهة. فالحق في القوة ولا احترام

---

١ - المفكرون ص٤٢٤.

٢ - قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٤٥. انظر : المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر . د.بارودي . ترجمة : د. محمد غلاب . مراجعة : د. ابراهيم بيومي مد كور . ط مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الثانية .

لحق ما لم تؤيده قوة. والعدالة هي القوة وبدونها تكون عاجزة.

وآراء نيتشه هذه قد استغلتها الدعاية النازية لإشعال نار الحرب، وبسط نفوذ ألمانيا على الشعوب الأخرى " حاولت الدعاية النازية ، أن تصور نيتشه بأنه فيلسوف متعصب لقوميته، إلى حد الدعاية إلى الحرب لحسم كل نزاع يقع بين وطنه وغيره من البلاد، ولضمان سيادة هذا الوطن، وإثبات تفوق الجنس الذي ينتمي إليه على سائر الأجناس البشرية "[١].

ولم يقف أثر نيتشه على هتلر والنازية، بل تأثر به أيضاً موسوليني في سياسته ومنطقه وتعامله مع الغير، المعتمد على القوة. يقال: إن الكتاب الذين تأثر بهم موسوليني هم: جورج سوريل، ونيتشه، وبيجي، ورينان، وبرجسون[٢].

وتأثر به كذلك كارل ماركس في مبادئه، والفكر الماركسي في اعتماده على نشر مبادئه بالقوة[٣].

وكان من أثر نيتشه أيضاً: ارتفاع صوت ونزعة الذاتية أو الفردية أو الأنانية على الغيرية أو على المجتمع، وهو ما يعرف بـ " مذهب الطاقة الأناني" "ارتفع صوت الأنانية على صوت الغيرية ، وغلبت الأثرة بواعث التضحية. وأكبر ممثلي هذا الاتجاه حديثا فريد ريك نيتشه "[٤].

ومنطق القوة الذي ساد في أيامنا هذه، وطغى وتجبر، وصار يحكم على الشئ بالصواب، إذا كان موافقاً له وللقوة، ومن لم يكن معنا فهو ضدنا، هذا قال به نيتشه قبل ذلك، وبين فساده ومعادة الجميع لمن يتفوه به، على الرغم من كونه فيلسوف القوة. يقول نيتشه: "لو

---

١ – السابق ص٢٤٢.

٢ – زكريا ص١٢٦

٣ – الأمير ص٩٢.

٤ – المنجد في اللغة والأدب. لويس معلوف ج٣. ص٥٤٤. ط المطبعة الكاثوليكية. بيروت. الطبعة السابعة عشرة.

تجرأ أحد في أيامنا على القول: من ليس معي فهو ضدي، فإن جميع العالم سيكون ضده هذا الشعور هو علاقة عصرنا البارزة"[١].

الحكم على نيتشه

لقد اختلفت الآراء في الحكم على نيتشه. هل هو فيلسوف أم لا ؟ وهل هو صاحب فكر جديد يؤثر أم لا ؟ . ولكن الجميع اتفق على ثورته على كل شئ، وعدم رضائه بشئ، وعلى اقتناعه التام بما يقول مهما كانت نتائج مخالفته. يقول "إميل فاكيه" عضو المجمع العلمي الفرنسي: "ما من مفكر أشد إخلاصاً من نيتشه؛ إذ لم يبلغ أحد قبله ما وصل إليه ، وهو يسبر الأغوار في طلب الحقيقة دون أن يبالي بما يعترض سبيله من مصاعب؛ لأنه ما كان ليرتاع من اصطدامه بالفجائع في قرارتها، أو من انتهائه إلى لا شئ "[٢].

ولأن نيتشه اعتمد على عقله فقط، دون نور من وحي، بل رفض ما يأتي به الوحى، فقد ضل وتخبط تخبطاً كبيراً. نيتشه " اقتحم أسرار الكون معتمداً على ذاته، فعاد عن هذه الأسرار مدحوراً ، وهل من كاتب قبله أو بعده، تمكن من حل ألغاز الوجود، والوقوف منها عند عقيدة صريحة، تستغني عن الإيمان بالقوة الخفية المتعالية عن التعليل والتحليل؟ "[٣].

ومن الباحثين من يرى أن نيتشه لم يأت بجديد " لم يأت نيتشه بشئ جديد من الوجهة الفلسفية، وكل الجديد عنده ذلك الضجيج الذي يقال له أدب "[٤].

وإذا كانت فلسفة نيتشه كما قال الباحثون تشتمل على جانبين، جانب هدم وجانب بناء، فهو قد هدم كل شئ، ولم يبن شيئاً. وما قاله عن الإنسان الأعلى، ما هو إلا أفكار مبتورة ، لا يمكن تحقيقها على أرض الواقع – كما سبق – . ولعل في عبارات " كارل ياسبرز" أبلغ

---

١ – زارا صـ

٢ – زارا مقدمة المترجم . ص هـ.

٣ – السابق . ص م.

٤ – تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤١٢.

تعبير عندما وصف نيتشه بقوله: " والواقع أنه لا يهدينا إلى الطريق، ولا يعلمنا اعتقاداً ما ، ولا يضعنا على أرض صلبة. بل هو لا يتركنا نستريح قط، ولا يكل عن تعذيبنا، وهو يطردنا من كل مأوى نلجأ إليه، وهو يمزق كل قناع "(١).

إن نيتشه شن حملة شعواء على مخالفيه في الرأى من الفلاسفة، وعلى الفلاسفة السابقين عليه الذين أنتجوا آراء أدت إلى ضعف المجتمع كما يدعي، وأنهم يتفلسفون بين جدران أربعة، وعلى كرسي وثير منعزلين عن الناس، يجلسون في أبراج عاجية " فأين كان يتفلسف هو؟ ألم يكن أكثر الناس عزلة وتفرداً؟ ألم تكن حياته كلها تسير في طريق موحش؟ يزداد بعداً عن الناس بالتدريج؟ ألم يكن يفخر بانطوائه وبترفعه؟ . ففي أي ئ يفترق إذن من تلك العقول التي كانت تنحصر بين أربعة جدران، وتحيا في جو مفارق لواقع الناس؟"(٢).

إن الفترة التي عاش فيها نيتشه ، تعد فترة انتقال مهمة في تاريخ الفكر والعلم والحديث، وبالتالي من الصعب الحكم عليها لمن عاصرها وعاش فيها في وقتها؛ وذلك لأن معالمها لم تتضح بعد؛ ولذلك فإن حكم نيتشه عليها لم يكن صحيحاً.

إن نيتشه كان قبل شئ مفكراً حضارياً، ورسالته في الحياة لم تكن رسالة فيلسوف صاحب مذهب نظري، وإنما كان أساسًا ناقد للحضارة التي يعيشها، وعلى الرغم من كل ما امتازت به نظرته إلى الحضارة الأوربية المعاصرة له من عمق ومن قدرة على النفاذ إلى أبعد الأغوار، فإنه كان ابنا لحضارة لم تكتمل، فنيتشه نتاج أصيل للقرن التاسع عشر، وما كان في وسعه وهو يعيش في ذلك القرن أن يصدر

١ - المذاهب الوجودية من كير كيجورد إلى سارتر . تأليف: ريجيس جوليفيه. ترجمة فؤاد كامل نقلا عن: المجتمع المثالي ص٤٣٠.

٢ - زكريا ص١٩.

حكما دقيقاً شاملاً على الحضارة الغربية المعاصرة له لسبب واضح، وهو أن تلك الحضارة كانت تمر بفترة انتقال إلى عهد جديد لم تكن عناصره قد اكتملت بعد، بل لم يكن بعضها قد ظهرت بوادره أصلاً "(١) .

الخاتمة:

بعد هذه السياحة المتواضعة – الشاقة والممتعة– في عقل وفكر الفيلسوف الألماني نيتشة نستطيع أن نخلص إلى الأمور التالية :

- اختلفت الآراء حول تقييم فكر نيتشة، وهل هو فيلسوف أتى بجديد أم لا؟.

والحقيقة – كما أرى – أن ما أتى به هو خليط من أهواء وآراء شتى، جمع بين مختلف المذاهب، وأتى بهذه التوليفة العجيبة التي رأيناها .

- أن النتيجة الحتمية والطبيعية للبعد عن الفطرة وإنكار وجود إله لهذا الكون، يلجأ إليه في الحوائج إما الجنون، أو الانتحار، أو العيش في هذه الحياة بغير هدوء وراحة نفسية.

- خطأ القول بالتطور الأخلاقي، وأن في قمة هرم هذا التطور أخلاق القوة.

١ - زكريا ص٨.

النهضة العربية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٦٧م.

– فلسفة نيتشه . د. يسري إبراهيم . بدون.

وهو مطبوع تحت عنوان : نيتشه عدو المسيح . ط دار سينا للنشر. الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م.

– المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر. د/ بارودي. ترجمة د/ محمد غلاب راجعه د/ ابراهيم بيومي مدكور. ط الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية.

– قصة الفلسفة الحديثة. أحمد أمين وزكي نجيب محمود. ط مطبعة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٥٩م.

– قصة الفلسفة اليونانية. أحمد أمين وزكي نجيب محمود. ط مكتبة دار الكتب المصرية . الطبعة الثانية. سنة ١٩٣٥م.

– الكتاب المقدس. دار الكتاب المقدس. ط العيد المئوي. سنة ١٩٨٣م.

– ما وراء الخير والشر. فريدريش نيتشه. ترجمة د. محمد عضيمة. بدون.

– المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه.د. محمد سيد أحمد المسير. ط . دار المعارف . الطبعة الثانية.

– المذاهب الوجودية من كير كيجورد إلى سارتر. تأليف: ريجيسي جوليفيه. ترجمة فؤاد كامل.

– لسان العرب. جمال الدين ابن منظور.ط.دار المعارف . بدون.

– المعجم الفلسفي. د. جميل صليبا. ط دار الكتاب اللبناني. بيروت . الطبعة الأولى. سنة ١٩٧٣م.

– المفكرون من سقراط إلى سارتر. هنري توماس. ودانالي توماس. ترجمة عثمان نويه. ط مكتبة الأنجلو. سنة ١٩٧٠م.

– الملل والنحل. عبد الكريم الشهرستاني. ت ٥٤٨هـ تعليق الشيخ: أحمد فهمي. ط. دار السرور . بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م.

– المنجد في اللغة والأدب والعلوم. لويس معلوف. ط المطبعة

الكاثوليكية. بيروت . الطبعة السابعة عشرة.

– الموسوعة العربية الميسرة. إشراف : محمد شفيق غربال. ط. دار الجيل سنة ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.

– نيتشه. د. عبد الرحمن بدوي. سلسلة الفلاسفة. خلاصة الفكر الأوربي. ط. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة. سنة ١٩٥٦م.

– نيتشه د. فؤاد زكريا. سلسلة نوابغ الفكر الغربي. ط. دار المعارف. الطبعة الثانية. بدون.

– نيقولا ما كيا فيللي. دراسة تحليلية محورها كتاب الأمير. ترجمة وتحليل وتعليق: محمد مختار الزقزوقي. ط مكتبة الأنجلو.

– هكذا تكلم زرادشت. فريدريش نيتشه. ترجمة: فيلكس فارس. مطبعة جريدة البصير. الاسكندرية . سنة ١٩٣٨م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.	٥٢١
مدخل. مصطلحات الموضوع	٥٢٢
مولده. وحياته.	٥٢٣
مؤلفات نيتشه.	٥٣٥
مرض نيتشه.	٥٣٧
وفاته.	٥٣٨
اعتداد نيتشه بنفسه.	٥٤٠
منهج نيتشه في فكره.	٥٤١
جذور فكر نيتشه، ومن تأثر بهم، وأثر فيهم.	٥٤٣
(١) السوفسطائيون.	٥٤٣
(٢) ماكيافيللي.	٥٤٤
(٣) بسمارك، وقبول المجتمع الألماني لفكرة القوة.	٥٤٦
(٤) الكونت دوغوبينو.	٥٤٧
(٥) دارون.	٥٤٨
(٦) شوبنهور.	٥٥٠
(٧) ريتشارد فاجنر.	٥٥٢
نيتشه والوجودية.	٥٥٥
موقف نيتشه من الدين.	٥٥٦
المرحلة الأولى.	٥٥٧
المرحلة الثانية.	٥٥٨
إرادة الحياة.	٥٦٣
المرحلة الثالثة.	٥٦٥
المقياس الخلقي عند نيتشه الخير والشر.	٥٦٩
حرب نيتشه على اليهودية والمسيحية من خلال نظريته الأخلاقية	٥٧٣
تحديد المقياس الخلقي.	٥٧٦
أخلاق السادة وأخلاق العبيد.	٥٨٢
الخير والشر وتعامل الأعداء.	٥٩٦
القضاء على الضعفاء.	٥٩٧
رأى نيتشه في بعض الفضائل الخلقية.	٥٩٨
مناقشة المقياس الخلقي عند نيتشه.	٦٠٢
إرادة القوة.	٦٠٣
تفسير الوجود باعتباره مظهراً من مظاهر إرادة القوة.	٦٠٨
الرد على إرادة القوة.	٦١٢
الإنسان المتفوق "السوبرمان".	٦١٣
إحلال الإنسان المتفوق محل الإله.	٦٢٤
الأولاد من أجل القوة والتفوق فقط.	٦٢٦
كيفية إيجاد الإنسان المتفوق.	٦٢٧
الرد على فكرة الإنسان المتفوق.	٦٣٢
أثر أخلاق القوة على المجتمع العالمي.	٦٣٩
الحكم على نيتشه.	٦٤٣
الخاتمة	٦٤٥
فهرس المصادر والمراجع.	٦٤٧
فهرس الموضوعات .	٦٥٠

* * *